أزمة الخليج: الخطر والفرصة (رؤية للحاضر بدلالة المستقبل)*

طلعت منصور**

* لقد ضمنا عنوان هذه الدراسة معنى مصطلح «أزمة» (crisis) باللغة الصينية «ويجي» (WEIJI)، أي الخطر والفرصة، باعتبارهما متغيرين متلازمين، وحيث يتفاعلان مع بعضها، في تلازم مع وقوع الأزمة.

** حصل على درجة دكتوراه الفلسفة في العلوم النفسية من كلية علم النفس ــ جامعة موسكو إبريل ١٩٧٣.
يعمل حالياً أستاذاً ورئيساً لقسم الصحة النفسية بكلية التربية ــ جامعة عين شمس.

الملخص

إن أزمة الخليج في تسارعها وتعقدها وفي تفاعلاتها وافتعالاتها، لتستدعي رؤية أكثر تقييما لواقع تلك الأزمة، وأبعد تقديراً لدلالاتها بالنسبة للمستقبل العربي. وتستند الدراسة إلى بناء إطار من المفاهيم العلمية المشتقة من أدبيات التنظير والبحث في «سيكولوجية الأزمة» و«إدارة الأزمة» و«التدخل في الأزمة»، اعتباراً لتلك الحقيقة بأن مأساة العدوان العراقي على الكويت ـ دولة ومجتمعاً، تراباً وتراثاً، شعباً وقيادة شرعية ـ وما اتصف به هذا العدوان من «اللامعنى» و«اللامعيارية»، لتجسد «نموذجاً» صارخاً للأزمات كما يكشف عنها التراث العلمي.

ويتبدى من «نظرية الأزمة» أو الأزمة ظاهرة يعتمل في ديناميا تها «الخطر مع الفرصة»، وبخاصة الفرصة للتغير وللنمو. وتقدم الدراسة، بناء على ذلك تحليلاً علمياً لأزمة الخليج في نسق إطار يتناول أصول الخطر (أو «مصدر العلة» بالمفهوم الكلينيكي) كما تتمثل في ظاهرة «الصدامية»، وحيث تطرح الدراسة مفاهيم جديدة يمكن تضمينها في موسوعات العلوم السياسية والتاريخية والإنسانية، وتقدم تشخيصاً لزُملة الأعراض المميزة لنمط «سيكوباثولوجيا القائد» (مفهوم مقترح، أقرب إلى مفهوم «فرانكل» عن «سيكوباثولوجيا الجماهير») وتأثيره على اضطراب المجتمع في ضوء مفهوم «المجتمع العاقل» في مقابل «المجتمع غير العاقل».

وتحدد الدراسة أبعاد الخطر في أن العدوان العراقي على الكويت هو في حقيقته عدوان على الذات العربية، وما في ذلك من الاستنزاف النفسي والفقد النفسي لطاقات الإنسان العربي ولكفاءات الوجود العربي، وكذلك العدوان على البيئة، وحيث تتكشف تلك العلاقة الوثيقة بين تلوث الإنسان، أو إن شئنا لوثة الإنسان، وبين تلوث البيئة (وهنا تطرح الدراسة بعضاً من المتغيرات والمفاهيم الجديدة فيما يتعلق بحماية البيئة).

وتناقش الدراسة ظاهرة غريبة نشأت مع أزمة الخليج وهي ظاهرة «التوحد مع المعتدي» وذلك في ضوء مفهوم «رد الفعل العكسي»، أي اتخاذ المواقف المضادة.. فالوقوف «ضد» المعتدي يتحول بالنقيض إلى توحد «مع» المعتدي.. وتلك ديناميات غير صحية تعكس ذلك التلوث النفسي في المناخ العربي.

وفيما يتعلق برد فعل الخطر، فتحلل الدراسة الآثار النفسية لأزمة الخليج استناداً إلى نتائج دراسة تجريبية للمؤلف في هذا الشأن وذلك في ضوء ثلاثة عوامل: عامل القلق الوجودي، وعامل ردود أفعال الاكتئاب الصدمي (الجانب السلبي)، ثم عامل الإرادة والمواجهة (الجانب الإيجابي). وتلك هي المتلازمات النفسية لأزمة الخليج كرد فعل للخطر.

وفي مقابل الخطر تتنامى الفرصة، حيث تعرض الدراسة للفرص الضائعة في حمأة الأزمة (وفي مقدمتها مؤتمر القاهرة) لاحتواء تلك المأساة والملهاة وللوقاية من نازلة أخطارها في «اللحظة السيكولوجية المواتية»، ثم تركز الدراسة على حتمية عودة الفرصة أو استعادة الفرصة في ضوء «استراتيجية عربية لتجاوز أزمة الخليج»، وحيث يمكن بناءً عليها أن نستشرف رؤية للمستقبل بدلالة الحاضر، ورؤية للحاضر بدلالة المستقبل.

مقدمة

لقد استدعت ظاهرة العدوان العراقي على الكويت، في أحداثها ومواقفها وفي تفاعلاتها وافتعالاتها، وقفة وموقفاً على كل المستويات والمجالات.. إنسانياً وسياسياً واقتصادياً وعسكرياً.. وبدءً ومبادأة بالموقف المصري الحضاري والإنساني.. وصولاً إلى الموقف العربي والعالمي.. والساكت على الحق شيطان أخرس..

ولكن ربما لم تلق أزمة الخليج ما تستحقه من التناول العلمي الرصين.. وفي كل مراحل تطورها.. بل إننا نرى أن العلماء العرب، على الأقل في ميداننا وهو العلوم النفسية، قد أخذوا إبان تلك الأزمة بالصمت أو إيثار العافية أو حتى التحسب والانتظار.. وربما كانت أزمة الخليج في التحليل النهائي ظاهرة نفسية تستلزم أكثر ما تستلزم وقفات ومواقف من السيكولوجيين العرب.. وخاصة من المنظور الوقائي لتلك الأزمة في منشئها وحماية للوطن العربي من ذلك المآل الذي انتهت إليه تلك الأزمة وفي كل عملياتها من حرب تحرير الكويت ومن أشكال الدمار والمآسي والإصابات المتعددة في جسم أمتنا العربية وفي حاضرها ومستقبلها، وتلك من أعز مهام علماء النفس ليكونوا أكثر شجاعة في التصدي لقضايا ومشكلات أمتنا العربية وقايةً وعلاجاً.

لقد تأكد من تجارب الشعوب المختلفة، واعتباراً للتراث العلمي في مجالات «سيكولوجيا الأزمات» و«إدارة الأزمات» و«التدخل في الأزمات»، أنه في «الفترات الحرجة» من تاريخ الشعوب، وخاصة في فترات الحروب والكوارث وما تفرزه من أشكال شتى من الدمار والمعاناة، تبرز أهمية التناول العلمي لتلك الفترات.. وذلك للوعي بمتغيراتها، ولاستيعاب مترتباتها، ولمواجهة متطلباتها من استعادة التوازن وإعادة البناء للفرد وللمجتمع.

ولقد شهد التاريخ الإنساني في مواضع كثيرة من العالم أحداثاً مروعة من عدوانات وحروب.. اختلفت بشأنها الاجتهادات والتفسيرات.. ولكن ربما لم يخبر التاريخ الإنساني موقفاً اجتمعت فيه كلمة العالم واتحدت حوله الآراء والاتجاهات مثل الموقف من العدوان العراقي على الكويت.. فالمحنة التي تعرضت لها الكويت ـ دولة ومجتمعاً، تراباً وتراثاً، شعباً وقيادة شرعية ـ من جراء ذلك العدوان، وما اتصف به ذلك العدوان من اللامعنى واللامعيارية ومن القساوة والوحشية التي تفوق في حالات كثيرة كل ما شهده التاريخ الإنساني من مآس ومن ظلم، قد أوجدت معها «حالة صدمة» للإنسان الكويتي في سعيه الجاد لبناء ذاته الحضارية بين المجتمعات الإنسانية.. بل كان «صدمة» لكل المجتمع الإنساني.. وذلك في عصر يرنو إلى حضارة القرن الحادي والعشرين[1].

إن أزمة الخليج في تواترها وتسارعها وفي تشابكها وتعقدها، لتستدعي رؤية أكثر تقييماً لواقع تلك الأزمة، وأبعد تقديراً لدلالتها بالنسبة للمستقبل العربي.

وتستند هذه الرؤية إلى نظام من المفاهيم العلمية التفسيرية.. من منظور نفسي (سيكولوجي) وماله من متضمنات ودلالات سياسية وتاريخية واجتماعية.. وهو منظور ربما لا يعطيه الكثيرون ما يستحقه من أهمية وخطورة.. ومن هذا المنظور يمكننا أن نستبين الكثير من مأساة وملهاة فأزمة الخليج وما تَكَشَّف عنها من ظاهرات وأعراض وما استدعته مواقفها من تفاعلات وافتعالات.. منظور الغاية منه هو «التشخيص» لتلك الحالة المرضية التي تردى فيها ركن عزيز من أمتنا العربية والإسلامية.. والعلاج الناجح هو التشخيص الناجح.. ويتأتى العلاج من خلال استراتيجيات المواجهة الفعالة لتلك المأساة التي تعرضت لها الكويت، وما يكمن في أحداثها ومواقفها من معان نستبصرها دروساً مستفادة لواقع حياة أمتنا وفي حركتها إلى مستقبلها.. وفي هذا المنظور أيضاً تبرز الأهمية الفائقة لفهم وتفسير الحاضر وديناميّاته وتنبؤاً بالتوقعات في المستقبل، ومن ثم ضبطاً لاحتمالات المستقبل وترشيداً لمساراته.

مفاهيم أساسية

الأزمة هي تقلبات وجهة الزمان من الزمان المواتي إلى الزمان العاتي، حيث تخفق الأساليب السابقة للفرد والجماعة لمواجهة المشكلات وإداراتها في التعامل مع التهديدات والتحديات الجديدة، الأمر الذي يترتب عليه نوع من «اضطراب التنظيم» و«اختلال التوازن» في حياة الفرد والجماعة.

ولذا فإن التناول العلمي للأزمات، بحثاً عن التحليل الدقيق لها وعن أنسب الاستراتيجيات والبرامج الملائمة «للمواجهة» الفعالة لتلك الفترات الحرجة، ليعد مطلباً حتمياً لتوظيف العلوم النفسية واستثمارها في معالجة الأزمات وضغوطها ومترتباتها. وهنا، قد يؤدي القصور في مواجهة حل أزمات الحياة إلى إحداث إصابات نفسية بعيدة المدى، وذلك ركن أساسي من أركان «نظرية الأزمات»[٢].

يكشف التحليل الدلالي (السيمانتي) لمصطلح «الأزمة» (crisis) عن مفاهيم تنطوي على إثراء للمعنى السيكولوجي لهذا المصطلح وما لذلك من انعكاسات على التراث العلمي في هذا الميدان. فالأزمة بالمصطلح الصيني (Weiji) تتضمن مفهومين: الخطر والفرصة، وهما متغيران يحدثان في نفس الوقت. أما المصطلح الإنجليزي فيستند إلى الكلمة اليونانية (Krinein)، وتعني «أن نقرر». وتوضح الاشتقاقات المأخوذة عن المصطلح اليوناني أن **الأزمة هي وقت القرار والتقدير والحكم، وكذلك فهي نقطة تحول** حيث

يحدث تغير إلى الأحسن أو إلى الأسوأ[٣].

ويتضمن مصطلح «أزمة» في المعاجم العربية عدة معان أساسية. ومن عجيب عبقرية لغتنا العربية أن نجد أن كلمة «أزمة» تفيد معانٍ خمسة كلها ذات صلة بالمعنى العلمي الذي نقصد إليه ونحن نتكلم عن طبيعة الأزمة ومفاهيمها. وهذه المعاني هي[٤]:

* الصرخة والاحتجاج: فيقال (أزم) على الشيء أزما: عض بالفم كله عضاً شديداً.
* الضغط الزائد: فيقال (أزم) الحبل ونحوه: أحكم فتله. و(أزم) الباب: أغلقه. ويقال أزم الفرس على اللجام.
* الخسارة والفاقد: فيقال (أزمت) السنة أزما: اشتد قحطها، و(الأزمة): القحط.
* الانفعالية الزائدة: فيقال (الأزمة): الضيق والشدة. والحمية و(في علم الطب): تغير فجائي يحدث في مرض حاد كالحميات.
* المواجهة: فيقال (أزم) فلان على كذا: لزمه وواظب عليه.

وسوف نتبين في تناولنا لنظرية الأزمات ومفاهيم ومراحل الأزمة كيف تتطابق هذه المعاني على المفاهيم العلمية في هذا الميدان.

يعني مفهوم «الأزمة» crisis حالة مؤقتة من الاضطراب ومن اختلال التنظيم، تتميز أساساً بقصور الفرد أو الجماعة عن مواجهة موقف معين باستخدام الطرق المعتادة لحل المشكلات، كما تتميز بما تنطوي عليه تلك الحالة من إمكانات لحدوث نواتج أو مترتبات موجبة أو سالبة بشكل جذري. ويتضمن هذا التعريف المعالم الأساسية للأزمة كما يحددها المنظرون المختلفون في هذا الميدان؛ فيؤكد كابلان Caplan (١٩٦٤) على الاضطراب الانفعالي emotional upset وعلى اختلال التوازن disequilibrium، بالإضافة إلى تعطل إمكانات المواجهة أو حل المشكلات إبان حالة الأزمة. ويركز تابلين Taplin (١٩٧١) على المكون المعرفي لحالة الأزمة، وخاصة على اضطراب توقعات الفرد في الحياة، وكذلك على عجز «الخريطة المعرفية» Cognitive map للتعامل مع موقف جديد ودرامي. ويهتم آخرون (شولبرج وشيلدون Schulberg & Sheldon، ١٩٦٨) في تحديد طبيعة حالة الأزمة بذلك التفاعل بين «الحالة الذاتية» للأزمة وبعض المواقف البيئية الموضوعية[٥].

ويمكن، بناء على ذلك، توضيح طبيعة الأزمة في ضوء نظرية الأزمات (crisis theory) كما يلي:

«إن كل البشر يمكنهم أن يتوقعوا في فترات مختلفة من حياتهم أن يخبروا «أزمات» تتميز بحالة عالية من الاضطراب الانفعالي ومن اختلال التنظيم disorganization ومن

إخفاق استراتيجيات المواجهة coping strategies الملائمة لمواقف أو حالات أخرى في الماضي. وتستغرق حالة الأزمة فترة زمنية محدودة، تفجرها بعض الأحداث المُرسبة/ المُهيئة precipitating events، ويمكننا أن نتوقع لها أن تأخذ نمطاً تتابعياً من التطور خلال مراحل مختلفة؛ وهذه الحالة تنطوي في نفس الوقت على إمكانات للحل في اتجاه مستويات أعلى أو أدنى من التوظيف. أما الحل الأقصى للأزمة فيتوقف على عدد من العوامل، منها شدة الأحداث المعجلة، والمصادر الشخصية personal resources للفرد / أو الجماعة (قوة الأنا، الخبرة السابقة مع الأزمات)، والمصادر الاجتماعية social resources للفرد / أو الجماعة (العون المتاح من الآخرين المعنيين significant others)[٦].

ويرى بعض المنظرين والباحثين في ميدان سيكولوجيا الأزمات أن «الأزمة ظاهرة» تجمع في طياتها دائماً «الخطر مع الفرصة» (danger With Opportunity). فعنصر الخطر يتأتى حينما تخلق بعض الأحداث المعجلة توتراً لا يلقى خفضاً بواسطة الأنماط السلوكية العادية. ويزداد مستوى التوتر وعدم الارتياح بشكل واضح عندما تخفق الحلول واحدة تلو الأخرى، وعندما يثبت أن أساليب المواجهة غير ملائمة. ويصاحب هذا التوتر الزائد ما يخبره الفرد / أو الجماعة من اضطراب معرفي وانفعالي. ويتبع ذلك حالة من اضطراب التنظيم ومن اختلال آليات (ميكانزمات) التوازن، والتي تؤدي بدورها إلى خفض المقدرة على حل المشكلات وإلى تعميق الإحساس بالضيق والأسى. وعند هذه النقطة، يكون الناس في حالة من القهر والانغمار في حمأة الخطر من الأزمة[٧].

«إلا أنه خلال حالة الاضطراب التي تصاحب الأزمة، تتأتى «الفرصة للنمو» (Opportunity for growth). وتلك هي الفترة التي يتلقى فيها الفرد / أو الجماعة الدعم أو السند من الآخرين، كما أنها الفترة التي تنشط فيها فعاليات الفرد / أو الجماعة استمراراً للبحث من جانبهم على حلول بديلة. وهذه الحلول البديلة قد تكون حلولاً تكيفية (adaptive) أو حلولاً غير تكيفية (maladaptive). وتنشأ الحلول البديلة اللاتكيفية من تجنب الأحداث الخطرة أو المُقلقة، أو اجترار المشكلات أو تسطيحها، أو إنكار حالة الضيق أو الغضب. وهنا فإن «إمكانات الخطر» danger potential تستمر في تفوقها على «إمكانات النمو» growth potential، لأن المواجهة اللاتكيفية (maladaptive coping) لا تعوق الحلول الجارية للمشكلات فحسب، ولكنها تهدد أيضاً القدرة على حل المشكلات في المستقبل»[٨].

وهناك من الأزمات ما هو عارض أو غير متوقع وهو ما يعرف بالأزمات الموقفية مثل أزمات الكوارث الطبيعية أو ضحايا الجريمة والعنف والعدوان، ولكن لمعظم الأزمات بدايات يمكن بها التعرف عليها والتنبؤ منها وذلك من خلال «الأحداث المُهيِّئة/ المُرسِّبة» Precipitating التي تحدد بداية أو منشأ الأزمة. ولكن تأثير تلك الأحداث يتوقف على

متغيرات معينة وهي التوقيت والشدة والمدة والتتابع ودرجة تداخل عوامل أو متغيرات أخرى مع تلك الأحداث [٩].

ويتفق كثير من الباحثين على أن الأزمات، لكونها نقاط تحول حاسمة يتجمع فيها الخطر مع الفرصة، فإنها بذلك تتمخض عن ثلاثة نواتج: تغير إلى الأحسن، تغير إلى الأسوأ، أو عودة إلى مستويات سابقة من التوظيف[١٠]. وهنا تلعب متغيرات الصحة النفسية للفرد /أو الجماعة دوراً كبيراً في الحلول الناجحة للأزمات، حيث ينتج عن هذه الحلول تعزيز للثقة وتنشيط للفعالية وتقوية للذات في التعامل مع ضغوط الحياة في المستقبل[١١].

ويقدم عدد من الباحثين نماذج متعددة لتفسير التطور المرحلي للأزمات، وهي نماذج تتفق على نسق تتابعي من المراحل التالية[١٢]:

الصدمة، التراجع الدفاعي، الاعتراف، ثم التكيف والتغير (Shock, defensive retreat, acknowledgement adaptation and change). وتتميز كل مرحلة من هذه المراحل بخبراتها المختلفة، وبإدراكاتها للواقع وبأفكارها وانفعالاتها، وبأنماطها من السلوك، وصولاً إلى المستوى المتوقع من التحسن والنمو بقدر فعالية استراتيجيات المواجهة للأزمة.

يقدم «هورويتز» Horowitz (١٩٧٦) نموذجاً عن مراحل الأزمة، كما يتضح من الشكل التالي[١٣]:

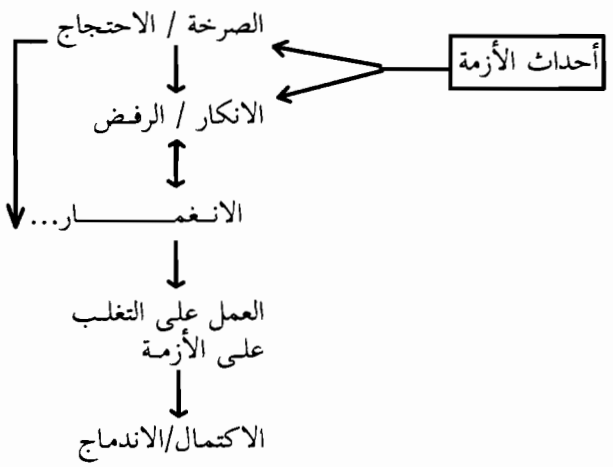

شكل (١): مراحل الأزمة

يتمثل أول رد فعل لأحداث الأزمة، وما تتضمنه من إحساس بالتهديد والخطر، في **الصرخة / الاحتجاج** (Outcry)، وهي ردود الأفعال الانفعالية كانعكاس مباشر للصدمة، أي

هي ردود الأفعال الأولية لتأثير الأزمة.

ويؤدي رد الفعل الأولي للأزمة إما إلى الإنكار/ الرفض للأزمة أو إلى الانغمار فيها. يشير **الإنكار / الرفض** (Denial) إلى النزعة إلى الحد من تأثير الأزمة وإلى تحجيم تداعياتها، مع السعي إلى إظهار التماسك والقوة. وقد تصاحب هذه الحالة بالتخدر الانفعالي emotional numbing، التي قد تظهر في شكل نزعة إلى اللاتفكير فيما حدث أو إلى القيام بأنشطة كما لو أن الأزمة لم تقع. أما **الانغمار** (intrusiveness)، فيتضمن التدفق اللاإرادي للأفكار وللمشاعر المؤلمة فيما يتعلق بأحداث ومآسي الصدمة، وحيث يدور الفرد في دوامة هذه الأفكار والمشاعر التي تتملكه وتستحوذ عليه. وهناك من الأفراد من ينتقل مباشرة من مرحلة الإنكار إلى مرحلة الانغمار، وهناك غيرهم ممن يتأرجح بينهما فيعيش هاتين الحالتين.

يعقب ذلك **مرحلة «العمل على التغلب على الأزمة»** (Working through)، وهي المرحلة التي يجري فيها تشغيل تلك العمليات التي يعمل فيها الأفراد على التعبير عن أفكارهم ومشاعرهم وعن صور خبرات الأزمة، وعلى تعرفها وتحديدها، وكذلك على تقبلها واستيعابها. وتلك مرحلة من التقدم نحو استعادة التوازن وترشيد الحياة بعد الأزمة. وهنا قد يحتاج بعض الأشخاص إلى المساعدة أو السند من الآخرين كي يصلوا إلى هذه المرحلة من تطور حالة الأزمة.

أما **مرحلة الاكتمال** (completion)، فهي مرحلة تكامل خبرة الأزمة داخل حياة الفرد / الأفراد والجماعة، واندماجها في نسيج حياة الفرد والجماعة. وتلك هي المرحلة النهائية لخبرة الأزمة، وحيث تتنامى قوى مواجهتها، وحيث يجرى تحديد المشاعر والأفكار والتعبير عنها، وكذلك إعادة تنظيم فعاليات الفرد و/ أو المجتمع لمواجهة الأزمة وما نتج عنها من آثار، مع العمل على ترسيم أسلوب حياة جديد يفيد من خبرات الأزمة.

ويؤكد منحى النظم على تناول الأزمات باعتبارها منظومة كلية تتفاعل في سياقها منظومات فرعية، وبالتالي يكون التعامل مع الأزمات وإدارتها ومواجهتها وفقاً لذلك النسق. وهنا يحدد بعض المنظرين «نسق الأزمة» Crisis context في أربع منظومات فرعية subsystems وهي: الأشخاص، جماعة الأسرة/ الجماعات الاجتماعية، المجتمع، والثقافة؛ وما تتضمنه هذه المنظومات الفرعية من متغيرات فيما يلي: (١٤)

الشخص / الأشخاصتتضمن متغيرات هذه المنظومة جوانب توظيف الشخصية (personality functioning)، وهي الجوانب السلوكية، والوجدانية، والجسمية والعلاقات البينشخصية، والمعرفية (تشير المصطلحات الانجليزية إلى ذلك بمتغيرات «الشخصية الأساسية» (BASIC Personality) والتي تتضمن الحروف الأولى من المتغيرات التالية:

Behavioral, affective, somatic, interpersonal and Cognitive(BASIC).)، وهنا تتحدد «حالة الأزمة» (crisis state) بالتغيرات التي يخبرها الشخص في هذه الجوانب أو في بعضها، وهو ما ينبغي أن يتضمنه القياس الكلينيكي لتلك الجوانب.

جماعة الأسرة / الجماعات الاجتماعية الأسرة، الأصدقاء، الجيران، وطبيعة علاقاتهم بالشخص و/أو الأشخاص في الأزمة (التماسك والترابط، أنماط التواصل، الأدوار والمسؤوليات، المرونة والمكاشفة، القيم). وتمثل جماعة الأسرة/ الجماعات الاجتماعية «المنظومة الصغرى» microsystem، وهي الوسط الاجتماعي المباشر الذي يعيش فيه الشخص/ الاشخاص. وتتضمن هذه المنظومة ما هو متاح في ذلك الوسط من «إمدادات اجتماعية» (social supplies) تلعب دوراً أساسياً في الأزمات. فالجماعة الاجتماعية المباشرة قد تكون مصدراً للتأييد والسند أو مصدراً للضغوط. وفي معظم الحالات تعتبر جماعة الأسرة والجماعات الاجتماعية هي الأساس في تقديم الإسعافات النفسية الأولية في مواجهة ضغوط الأزمة.

المجتمع خصائص المجتمع من حيث المتغيرات الجغرافية والمصادر المادية والاقتصادية؛ السياسات السائدة في الأجهزة السياسية والحكومية (التنفيذية والقضائية والتشريعية)؛ الأعمال والمهن؛ المدارس؛ دور العبادة؛ التنظيمات والمؤسسات المختلفة ويتأكد في هذه المنظومة الدور الحاسم للأجهزة الحكومية والسياسية والاجتماعية في التعامل مع الأزمة وحسن إدارتها عملاً على استعادة التوازن وإعادة البناء.

الثقافة وتتمثل متغيرات هذه المنظومة فيما يسود أسلوب حياة المجتمع من عادات وتقاليد واتجاهات ومعتقدات ومعايير وقيم. وفي ذلك تنطوي الأزمة على تغير في أسلوب حياة الفرد والجماعة، أي في أساليب التفكير والسلوك والعمل، وفي الانفعال والفعل، وفي الاتجاهات والقيم، بل وفي فلسفة الحياة بصفة عامة.

ويتناول بعض الباحثين «نسق الأزمة» أو «منحى النظم» في التعامل مع الأزمات من منظور وظيفي، حيث تتحدد الوظائف الأساسية لأي منظومة في وظائف ثلاث، وهي:

(أ) التكيف مع البيئة، (ب) التكامل بين المنظومات الفرعية المختلفة، (ج) اتخاذ القرارات. ومن شأن أي اضطراب في هذه الوظائف الثلاث أن يؤدي إلى أزمة. فالأزمة قد تعكس نوعاً من اضطراب التوافق مع البيئة، أو من نقص التفاعل بين المنظومات المختلفة داخل النسق العام للمجتمع. أما وظيفة اتخاذ القرارات فهي حجر الزاوية في استراتيجيات المواجهة كبعد رئيسي من أبعاد نظرية الأزمات. ومن ثم فإن وظيفة اتخاذ القرارات إبان الأزمات تأخذ وجهتين : حل الأزمة باستراتيجيات فعالة لمواجهتها، أو الاضطراب أو الإخفاق في التعامل معها.

ويؤكد الباحثون على أن المكونات المعرفية تلعب دوراً أساسياً في تحديد شدة الإحساس بالأزمة، وخاصة من المنظور الظاهرياتي (الفينومينولوجي)؛ أي كيف يدرك الفرد و/أو الجماعة أحداث الأزمة وظروفها وتفاعلاتها؟ وهنا تكون أحداث الأزمة مواقف حرجة، بقدر الصور المعرفية الإدراكية لها، وبكيفية تلاؤم تلك المواقف داخل الإطار المرجعي للفرد عن الحياة، أي كيفية استقباله وتفسيره لتلك المواقف. ويشبه بعض الباحثين[١٥] ذلك بعملية تجهيز أو تشغيل المعلومات Information processing في الحاسب الآلي (الكمبيوتر)؛ فالمعارف والإدراكات والتوقعات لدى الأفراد في هذه المواقف كالحاسب المبرمج لاستقبال البيانات وتشغيلها والاستجابة لها وفقا لذلك. وبالمماثلة، فإن الأزمة فترة زمنية فيها تكون المعلومات الجديدة التي يستقبلها الحاسب إما: (أ) متنافرة (تنافر معرفي cognitive dissonance) مع البرنامج القائم، أو (ب) أن تتواتر المعلومات بتلك الكميات الهائلة التي يخبرها الحاسب على أنها (حمل زائد overload) أو (سوء توظيف malfunctioning). وهنا ثمة صراع بين المعلومات الجديدة مع الإطار المعرفي cognitive framework لدى الأفراد وتوقعاتهم بشأن الأزمة وأحداثها. ومن ثم فإن العمليات المعرفية في هذه الحالة هي عمليات وسيطة بين أحداث الأزمة واستجابات الأفراد لها. وفي ذلك نستطيع أن نتبين الطبيعة القوية أو العنيفة لخبرة الأزمة.

وثمة ظاهرة نفسية أساسية تصاحب الأزمة، وهي ظاهرة الضغط النفسي الذي يعد بدوره مكوناً أساسياً من مكونات حالة الأزمة، إلى الحد الذي قد يستخدم «الضغط» و«الأزمة» كمفهومين متبادلين.

إن الضغوط stress ظاهرة من ظواهر الحياة الإنسانية يخبرها الإنسان في مواقف وأوقات مختلفة تتطلب منه توافقاً أو إعادة توافق مع البيئة. هذه الظاهرة، شأنها شأن معظم الظاهرات النفسية كالقلق والصراع والإحباط والعدوان وغيرها، هي من طبيعة الوجود الإنساني، وليس بالضرورة لذلك أن تكون الضغوط ظاهرة سلبية، وبالتالي فإننا لا نستطيع الإحجام عنها أو الهروب منها أو أن نكون بمنأى عنها، لأن ذلك يعني نقص فعاليات الفرد وقصور كفاءته ومن ثم الإخفاق في الحياة [١٦]؛ بل ويقرر رواد البحث في هذا الميدان أن يكون المرء بدون ضغوط، فإن هذا يعني الموت[١٧]. ولكن شدة الضغوط والتعرض المتكرر للضغوط وما يترتب عليها من تأثيرات سالبة كالفوضى والارتباك في حياة الفرد، والعجز عن اتخاذ القرارات، وتناقص فعالية سلوكه، وعجزه عن التفاعل مع الآخرين، وظهور أعراض لأمراض جسمية وغير ذلك من نواحي الاختلال الوظيفي dysfunctioning - فإن هذا يعني تلك الضغوط ذات التأثيرات السالبة المرتبطة باعتلال الصحة النفسية [١٨]. أما محك التفرقة بين جانبي الضغوط (الجانب العادي أو الإيجابي والجانب السلبي أو غير العادي) فيتحدد بنوع الضغوط التي نواجهها ونتعامل معها، وبكيفية تفسيرنا للمواقف

أو الأحداث الضاغطة، وبماهية طرقنا وأساليبنا في مواجهة تلك الضغوط[١٩].

وتعني الضغوط، بناء على ذلك، تلك الظروف المرتبطة بالضغط pressure وبالتوتر والشدة strain الناتجة عن المتطلبات أو التغيرات التي تستلزم نوعاً من إعادة التوافق عند الفرد وما ينتج عن ذلك من آثار جسمية ونفسية. وقد تنتج الضغوط كذلك من الصراع والإحباط والحرمان والقلق [٢٠].

ويمكن تحديد متغيرين أساسيين لفهم طبيعة الضغوط وهما[٢١]: «العبء الكمي» quantitative overload وهو زيادة حجم الأعمال والمهام والمسؤوليات المطلوبة من الأفراد والجماعات لمواجهة الإحساس بالضغط، و«العبء الكيفي» qualitative overload وهو أن الأعمال والمهام والمسؤوليات تنطوي على نوع من الصعوبة والجدة والتحدي مما لا تؤهلهم إمكاناتهم ومهاراتهم وخبراتهم السابقة لإنجازها مواجهة للضواغط stressors المختلفة. وقد لوحظ عدد من الاضطرابات السلوكية في المواقف التي تفوق فيها تلك المسؤوليات إمكانات الأشخاص أو لم تصل فيها إلى مستوى إمكاناتهم.

وتفرض الضغوط على الفرد متطلبات قد تكون فسيولوجية أو اجتماعية أو نفسية، أو تجمع بين هذه التغيرات الثلاثة. ورغم أن الاستجابة للضغوط قد تبدو استجابة ناجحة، فإن حشد الفرد لطاقاته لمواجهة تلك الضغوط قد يدفع الفرد ثمنها في شكل أعراض نفسية ـ فسيولوجية. هذه الأعراض تصفها نظرية سيليى Seyle على أساس أطوار ثلاثة للاستجابة للضغط تؤلف معاً ما يطلق عليه «زملة التوافق العام» General Adaptation (GAS) Syndrome وهي: الإنذار بالخطر ـ المقاومة ـ والإجهاد أو الاستنزاف ـ (Alarm-resistence exhaustion). ففي الطور الأول (الإنذار بالخطر) يؤدي الضغط إلى تنشيط حشد آليات (ميكانزمات) التوافق، وفي الطور الثاني (المقاومة) يتطلب الضغط استخداماً قوياً لآليات التوافق مع التحمل والمكابدة في سبيل ذلك، أما في الطور الثالث (الإجهاد أو الاستنزاف) فيؤدي الضغط إلى إنهاك آليات التوافق من خلال الاستخدام الزائد والمستمر لها. وتؤكد البحوث المختلفة التي أجراها «سيليى» على أن هذه الاستجابات المميزة لزملة التوافق العام للضغوط هي نفس نمط استجابة الجسم لأي ضغط؛ فالجسم يستجيب بنفس الطريقة لأي من الضغوط التي يتعرض لها الفرد [٢٢].

ومن هنا يمكن اعتبار الأزمة شكلاً حاداً من أشكال الضغط الذي يصل في شدته إلى درجة عالية تخلق لدى الأفراد و/أو الجماعات حالة من الاضطراب تؤدي إلى خفض مستوى قدراتهم على توظيف إمكاناتهم وطاقاتهم. فالضيق الذاتي الذي يصاحب الأزمة، أو الإدراك الذاتي للأزمة من شأنه أن يعطل القوى التكيفية adaptational powers إلى الحد الذي تصير معه الأزمة عاملاً يعترض أو يهدد استمرارية الوجود. وفي نفس الوقت، فإن

الضيق الزائد الذي يصاحب الأزمة يجعل الناس أكثر عرضة للتغير. ومن ثم، فإن الأزمة قد تعمل «كحفاز» catalyst يستثير سلسلة من ردود الأفعال والعمليات تنشأ معها تغيرات موجبة أو سالبة. أما التكيف الممتد للضغوط فقد يؤدي إلى ظروف باثولوجية، في حين أن الأزمة ـ وهي حالة وقتية ـ قد تكون مصدراً للقوى والطاقات المتجددة حينما تتأتى عمليات استيعاب الأزمة ومواجهتها بمهارة ونجاح(٢٣).

ووفقاً لهذا الإطار من المفاهيم العلمية وما ترتبط به من نظريات ونماذج نظرية ونتائج بحثية، تبرز تلك الحقيقة وهي أن العدوان العراقي على الكويت في أحداثه وتداعياته، مما نكب به عالمنا العربي والإسلامي، ليجسد نموذجاً صارخاً للأزمات كما يكشف عنها التراث العلمي في هذا الميدان. وبناء على ذلك، يمكننا تقديم تلك الرؤية العلمية لتحليل ظاهرة أزمة الخليج في أصولها ومظاهرها/ أعراضها، وفيما اعتمل فيها من «فرص» ضائعة لاحتواء الأزمة وللوقاية من نازلة أخطارها، وكذلك فيما تفاعل معها من «فرص» إيجابية لمواجهة الأزمة استعادة للتوازن وإعادة للبناء. وبهذه الرؤية أيضاً لا نقتصر على المنظور «التشخيصي» لتلك الأزمة، بل نستبصر أيضاً الدلالات المستقبلية التي نستقرؤها من واقع تلك الأزمة العربية ـ العربية من منظور حضاري وإنساني، وربما يتفق هذا النهج في تناولنا لأزمة الخليج مع بعض التوجهات المعاصرة في منهج الدراسات النفسية الكلينيكية فيما يعرف بـ «المنحى التشخيصي ـ التنبؤي/ العلاجي» Diagnostic-Prescriptive Approach، وحيث يمكن بناء عليه أن نستشرف رؤية للمستقبل بدلالة الحاضر ورؤية للحاضر بدلالة المستقبل.

مصدر الخطر

إن تحليل واقع أزمة الخليج تحليلاً متعمقاً لنستبصر معه «مصدر العلة» etiology (وذلك مفهوم أساسي من المفاهيم التي تعتمد عليها الطريقة الكلينيكية في بحث الظاهرات المرضية تشخيصاً وتنبؤاً وعلاجاً).. أي مصدر كل تلك الشرور والآثام والجرائم في حق الإنسان الكويتي.. بل وفي حق كل قيم الوجود الإنساني.. أعني بذلك ابتلاء القيادة في العراق، وفي تلك الحقبة من سوء طالع هذا المجتمع العربي، بحالة مرضية.. فقدت معها عقلها واختلت قدرتها على التعقل.. ورغم ما يطرح من تحليلات وتفسيرات اقتصادية وسياسية وعسكرية لتلك الأزمة ، ورغم كل ذلك، إلا أنه تبقى تلك الحقيقة وهي أن أزمة الخليج تنطوي في أصولها وفي تداعياتها على ظاهرة تمثل مادة علمية للتحليل السيكولوجي في المحل الأول (٢٤).

يقول العالم السيكولوجي «فيكتور فرانكل» بصدد نظريته وبحوثه التي نبعت من تجارب ومحن الحرب العالمية الثانية(٢٥): «أن الحرب العالمية الأولى قد عرفتنا بزُمْلَة

«مرض الأسلاك الشائكة» Barbed wire sickness؛ أما الحرب العالمية الثانية فإننا مدينون لها لأنها قد أغنت معرفتنا بـ «علم النفس المرضي للجماهير» (أو سيكوباثولوجيا الجماهير) (Psychopathology of the Masses)، لأن الحرب قد أعطتنا حربا للأعصاب كما أعطتنا معسكرات للاعتقال».

ونقول، قياساً إلى ذلك وإضافة إلى ذلك، أن حرب الخليج تبصرنا أيضاً بنموذج متميز في هذا الشأن فيما يمكن تسميته بـ «سيكوباثولوجيا القائد» (Psychopathology of the Leader) وتأثيره على اضطراب المجتمع وعلى مآله من التصدع والانهيار. بل ولسوء الطالع أن تطرح أزمة الخليج مفاهيم جديدة ومتغيرات جديدة في العلوم الإنسانية والسياسية والاستراتيجية.

المفهوم والماصدق في معنى «الصدام»[٢٦]

وإننا هنا، وإزاء ظاهرة الصدامية، أصل الخطر ومصدر العلة، لنقدم مفهوماً جديداً نقترح إدخاله في قاموس ومفاهيم العلوم السياسية والحربية والتاريخية، بل وفي قاموس ومفاهيم العلوم الإنسانية.. وهو «مفهوم» ينطبق على «الماصدق»، أي أنه في الواقع الفعلي تحقيق لصدق المفهوم.. فالمعاني والدلالات التي يتضمنها هذا المفهوم تترجمها واقعيا كل الأفعال والممارسات التي بها يعرف هذا المفهوم عملياً وإجرائياً.. إنه ـ للأسف وللخزي ـ تطابق المفهوم والماصدق في معنى «صدام».

ـ مفهوم «الصدام» و«الصدامي» ونحدده بالإنجليزية بالمصطلح التالي:

The Traumatizer
(The Saddamatizer)

ـ ومفهوم «الصدامية» نحدده بالإنجليزية بالمصطلح التالي:

Traumatization
(Saddamatization)

ـ كما نحدد «الصدامية» بالإنجليزية وفقا للمصطلح التالي:

Traumatism
(Saddamatism)

وهذه المفاهيم يمكن اشتقاقها علمياً من مفهوم «الصدمة» أو «حالة الصدمة» (Trauma، وجمعها Traumata):

تعني «الصدمة» وقوع أو حدوث الأذى والضرر والظلم والخسارة (Injury)، والجرح والإصابة (Wound)، والرجة أو الهزة أو الصدمة (Shock) ـ للنفس أو العقل، وفي النواحي

الفيزيقية/ المادية، وفي التركيب أو البناء (Structure)، أو في كل هذه النواحي؛ ويتم ذلك في شكل صدمة انفعالية Emotional Shock تحدث اضطرابا أو خللاً في الوظائف النفسية للفرد أو الجماعة، وذلك لفترة من الوقت قد تطول أو تقصر وفقاً لدرجة شدة الصدمة.

وبناء على ذلك يمكن تحديد ذلك المفهوم الجديد: يعني «الصدام» و«الصدامي» على أنه ذلك الفرد أو الجماعة أو النظام الذي يعمد ـ بالقصد والنية ـ إلى أحداث أو خلق «حالة صدمة» للأفراد أو الجماعات، وما ينتج عن هذه الحالة من «خبرة صادمة» Traumatic تؤدي إلى وقوع اضطراب في البِنَى / التراكيب Structure وفي الوظائف Functions للفرد أو الأفراد أو الجماعات أو المجتمع.

ويعني مفهوم «الصدامية» Traumatization عملية أو عمليات إحداث أو خلق «حالة الصدمة» للفرد أو للأفراد أو الجماعات أو المجتمع.

كذلك يعني مفهوم «الصدامية» ـ بمعنى Traumatism ـ ظاهرة إحداث أو خلق «حالة الصدمة».

وهم البطولة وهذاء العظمة(٢٧)

إن العراق دولة عربية كبيرة، لها حضورها العظيم، في ماضي أمتنا وفي حاضرها ومستقبلها.. ولكن العراق «الكبير» و«القوي» قد تورط في خطأ تاريخي جسيم بعدوانه على الكويت ـ ذلك البلد العربي الآمن، المسلم المسالم.. هل يريد العراق أن يثبت مدى كفاءته أمام الكويت وأن يختبر قوته وأن يحقق ذاته مع ذلك البلد العربي الشقيق؟ هل يريد العراق من ذلك أن يثبت لنفسه بطولة هي «وهم» وعظمة هي «هذاء»؟!

إن ما جرى من أحداث الخليج لهو في جوهره ردود فعل طبيعية لمأساة «عبادة الشخصية».. لقد رسم أمثال «جوبلز» وأعوانه من كتاب وإعلاميين ومنافقين صور وتماثيل القائد «مهيب الركن» تعلو في كل مكان في أرض الرافدين كما كان في دول أوربا الشرقية وما جرى فيها من تحطيم تماثيلها.. هي صور وتماثيل على الجميع أن يخضع لها ويتقمصها ويتكلم بلسانها ويأتي بحركاتها وتحركاتها. وذلك شكل من أشكال الوثنية. . والنتيجة وهم في وهم.. إنها «البارانويا» (جنون العظمة) التي قد تبلى بها قيادات بعض المجتمعات فتجرفها إلى مواقف وحروب ومآسٍ «بلا معنى»، فيكون مآلها الطبيعي والمنطقي هو الانكسار والانحسار.

ويأليتهم يدركون دروس ألمانيا الهتلرية وانكسار ألمانيا ثم انشطارها إلى مجتمعين متباينين في أيديولوجيتهما ثم العودة إلى الكيان الواحد رغم الأسوار ورغم الحديد والنار.. وتلك طبائع الأشياء ومنطقها.. ولعل الهتلرية درس لا ينسى للصدامية.

لكل عَرَضٌ غُرَضْ(٢٨)

والسؤال هنا: ما المكاسب التي يحرزها أمثال هؤلاء القادة؟ إنها المكاسب التي يحققها مرض الشخصية لصاحبها .. هي مكاسب مرضية الأصل pathogenic لإرضاء نزعات اضطراب الشخصية.. والخطر فيها هو أن الشخص أو الأشخاص لا يعون بتلك النزعات وتوجهاتها نحو الإرضاء والإشباع المرضيين.. وهذا ما يعبر عنه الاختصاصيون في علم النفس المرضي بأن لكل عرض غرض.. العرض في خدمة المرض.. فتلك أمراض وظيفية.. توجه الفكر والوجدان والعمل لغرض إرضاء النزعات المرضية وإشباعها.. وحيث يقع الفكر العاقل في أسر الانفعالات المرضية.

وإذا كان من طبيعة الإنسان «الإحساس بالإثم» لما يقترفه من آثام.. إلا أن هذه النزعات المرضية تقوده إلى أن يجد ويوجد «التبرير» الذي يغطي نزعاته وأفكاره وأفعاله بغلاف يعفيه من وطأة الإحساس بالإثم ووخز الضمير (والتبرير حيلة دفاعية هروبية لا شعورية لحماية الذات من هذا الإحساس).. بل وقد تقوم بعض التنظيمات أو الهيئات ـ نيابة عنهم وإعفاءً لهم من وطأة هذا الإحساس ـ بتقديم التبريرات والمبررات للعدوان.. وتلك هي «الدائرة الشريرة» التي ينزلق إليها الأشخاص التي يعانون من اضطرابات في الشخصية. وحيث يدورون في دوامتها لينتهي بهم الأمر إلى هاوية سحيقة.

إن المخزون النفسي لهؤلاء المرضى ـ من خوف وصراع وإثم ومن شر وعدوان ـ ليأسر طاقات «الإنسان» العقلية والوجدانية ويجهضها فيحيلها إلى حالة من «العماء» و«الغباء» ـ فيفكرون وينفعلون ويسلكون وهم «عبيد» لنزعات ذلك المخزون الذي يسلبهم إرادتهم.. أنهم «غير أحرار» من داخلهم.. بلا تقدير أو روية، وبلا بصيرة للواقع والمتوقع.

المُثلث المرضي(٢٩)

إن النظام «الصادم» في العراق، في منبته وفي تطوره، وفي توجهاته وممارساته، لهو نظام مريض وبغيض من «العدوانية» الشرسة والهمجية التي تأصلت وتدعمت في هذا النظام، وصارت في حالة متزايدة من التشغيل والتجهيز processing من داخله ـ داخل تلك الدائرة المفرغة/الشريرة لطبيعة هذا النظام، والذي صار ينضح بالقسر والإجبار نتيجة لذلك، بالشر والخراب والدمار من خارجه في عدوانيات متعددة ومتنوعة.. أشكال ومظاهر وأعراض شتى من العدوانيات.. من الداخل، وإلى الخارج.

.. وبهذا المعنى.. فإن «الصدامية» التي ابتلى بها العراق الشقيق، وانعكاسات هذا البلاء الذي أتى به نظامها على عالمنا العربي، وعلى الإنسان العربي، وعلى إمكاناته وعلى مقدسات وجوده وهويته ـ لهي ظاهرة مرضية بكل دلالاتها الإكلينيكية.. ورغم ما يطرح من دواعي أو ادعاءات أو تفسيرات اقتصادية أو تاريخية أو سياسية أو غيرها، إلا أنه تبقى

الحقيقة التي تنطق بذاتها وهي: أن العراق ـ ذلك البلد العربي الشقيق، وما له من ثقل حضاري وتاريخي في الجناح الشرقي من وطننا العربي الإسلامي، وما يكمن فيه من إمكانات ومقدرات تؤهله كي يحقق ذاته الحضارية والإنسانية في هذه الحقبة التاريخية المتميزة من تاريخ حضارة الإنسان الذي يتطلع إلى القرن الحادي والعشرين ـ **هذا المجتمع العراقي الشقيق قد أَمْرَضَته القيادة الصدامية** ..بقدر ما كان النظام الصدامي/الصادم، توجهاً غير عاقل ونظاماً عابثاً بمقدرات هذا البلد الشقيق، وغير أمين على إمكاناته وعلى مصادر خيره وقوته.. وحيث راح يزرع أرض الرافدين بنوازع الشر والتدمير والتخريب، ويبني فيه قصوراً من الوهم والإيهام لبطولات وخيالات لا ترضي إلا نزعات مرضى جنون العظمة الذين يسوقون هذا البلد إلى الدمار والخراب.

وإذا كان هذا النظام قد أتى بالدمار والخراب، المتعمد والمقصود وبالشراسة والوحشية، على الكويت.. ذلك البلد العربي الآمن والمسالم والذي وجه جُل اهتماماته وطاقاته إلى بناء نموذج حضاري وإنساني في ذلك الركن الكريم والعزيز من وطننا العربي.. فإن هذا النظام قد أتى بالدمار والخراب ـ ابتداءاً وفي الأساس ـ على الإنسان العراقي وعلى المجتمع العراقي.. ليدمر هذا الإنسان ومجتمعه من داخله.. يدمر عقله وتعقله وأسلوب تفكيره وإدراكه للأمور وتداركه للعواقب.. ثم هو نظام صار يدمر المشاعر والعواطف الإنسانية وقيم التواد والتراحم والتعاطف في الإنسان العراقي!.

.. وإن الكويت ـ إنسانها وأرضها ومياهها وسماءها وتراثها وإنجازاتها ـ لتصرخ وتئن وفي كل جراحها ومآسيها من كل الأساليب والممارسات الوحشية الشرسة التي تعكس غياب العقل والضمير لدى الشقيق والجار ..**وهو ما كان ليحدث، أو ما كان ليتوقع أن يحدث، إلا بعد أن سلب هذا النظام من الإنسان العراقي إنسانيته، وبعد أن قتل الإنسان في الإنسان العراقي في هذه الحقبة لدى أولئك الذين استجابوا لهذا النظام وتوحدوا معه قهرا وقمعاً واستلاباً للحرية وللإرادة فيهم.**

هنا «**منبت**» أو «**أصل**» المرض ـ ظاهرة الصدامية داخل العراق وإفرازاتها خارج العراق..

لقد عاشت الكويت محن لا تحتمل ولا تصدق.. كما عاش الخليج وكل المجتمع العربي والمجتمع الإنساني مع الكويت تلك المحن.

ولكن هذه المحن قد بدأت أساساً بمحنة الإنسان العراقي.. ومحنة المجتمع العراقي.. اللذين وظفهما النظام «الصدامي/الصادم» في القمع والقتل والدمار، وفي السلب والنهب والاغتصاب.. بل إن كل هذه المحن لم تكن لتقع إذا لم يوجد هذا النظام.. ولكنه قضاء الله وقدره!!.

إن الصدامية بؤرة مرضية في جسم المجتمع العراقي وفي حالة من «التشغيل والتجهيز» لتنشط في محاولة للانتشار وللنيل من جسم المجتمع العربي.. وهي حالة مرضية تعمل وتنشط وفقا لقوانين ما يعرف بظاهرة «الهستيريا التحولية» (Conversion Hysteria)، التي تنشأ من الصراعات والكبت ومن العدوان المخزون، وحيث تعبر هذه النزعات المرضية عن نفسها في مظاهر وأعراض مختلفة، متبدلة ومتحولة من جانب لآخر، ومن هدف لآخر.

وبهذه الظاهرة المرضية يمكن تفسير وجهة العدوان الصدامي في بداية منشأ الصدامية.. العدوان من الداخل على الشعب العراقي ذاته قمعاً وقهراً وكبتاً واستلاباً لحريته وإرادته.. ثم «تتحول» وجهة التعبير عن هذه الهستيريا إلى عدوان موجه إلى الخارج.. العدوان على إيران.. في حرب ضارية شرسة دامت قرابة عشر سنوات.. ولا نجد لها تفسيراً أو مبررا حقيقيين وعقلانيين. ولذا فقد انتهت الحرب العراقية ـ الإيرانية كما بدأت.. وبلا معنى.. ثم تزداد «الهستيريا التحولية» نشاطاً بعد فشلها في وجهتها الإيرانية (والإحباط ـ أي الفشل ـ يستثير العدوان كما تقرر بعض النظريات العلمية).. لتأخذ لها وجهة أخرى وهدفاً آخر وأعراضاً متغيرة.. وتلك هي وجهة الهستيريا في تحولها إلى الكويت، وحيث كانت هذه الهستيريا تتهيأ أيضاً إلى تحولات في وجهات أخرى بالخليج العربي.

وفي كل هذه التحولات الهستيرية للصدامية كانت هناك أيضاً **عدوانية مستمرة مرتدة إلى الذات** ..إلى الشعب العراقي نفسه الذي يدفع في خضم كل هذا الخبل ثمناً فادحاً..

وهنا تعبر «الصدامية» عما يمكن أن نسميه بـ «المثلث المرضي» الذي تَبَدّى في أعراض ومظاهر متحولة ومتبدلة:

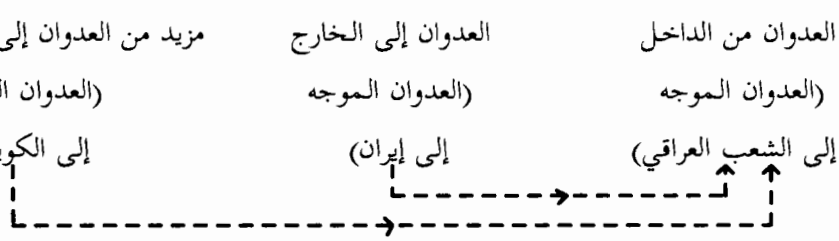

والسؤال المطروح الآن أمام العقلاء والحكماء من قادة العرب والعالم: ماذا بعد..؟ وما الذي يمكن أن نتوقعه إزاء ظاهرة الصدامية؟! إن هذا «المثلث المرضي» ليتلقى «تعزيزاً» (Reinforcement) في كل وجهة من وجهات التعبير عن حالة الهستيريا، ومن ثم المزيد من اشتهاء العدوان واستمراء ممارسته.

وتلك دائرة مرضية ينبغي كسرها وفكها حتى لا تستحكم ولا تتسع استشراءً وانتشاراً.

عُصَاب النجاح(٣٠)

يقول المثل الإنجليزي «النجاح يؤدي إلى النجاح» Nothing succeeds like success.. والقصد هنا هو ما يحرزه الفرد أو المجتمع من إنجاز.. ويعني «الإنجاز» - كما يقرر العالم «ماكليلاند» في كتابه «المجتمع الإنجازي» (Achieving Society) - السعي أو الاجتهاد نحو مستوى من الامتياز والتقدم.. وتنطوي خبرة النجاح أو الإنجاز على ما يعرف بالتعزيز الإيجابي، أي إثابة فعل النجاح والعمل الإنجازي وتدعيمهما.. وذلك في الاتجاه الإيجابي البنائي.

وقد عاش العراق طيلة السنوات العشر الماضية حالة من الهدر في حروبه مع إيران (الهدر نقيض الإنجاز وناقضه).. ضاع فيها الملايين من الإيرانيين والعراقيين، وتشردت أسر، وتهالكت اقتصاديات، وارتاعت نفوس، وتركت بصمات ووصمات تقدرها محكمة التاريخ.. وكان من الأذكى والأجدى أن توجه تلك الطاقات لأغراض البناء والتقدم الحقيقيين.. إلى الإنجاز.. لا إلى البطوليات والعنتريات الموهومة.

ثم ماذا عن «مكاسب» تلك الحرب؟ وما الذي حصده العراق؟ وفيما كان النجاح؟! وكل ما نعرفه الآن هو عَوْد إلى بدء.. إلى اتفاق الجزائر.. وهو ما تعتبره إيران النصر كل النصر لها.. وكأنه لم يكن لهذه الحرب الضروس من داع أو مبرر حقيقي.. إنها حرب بلا معنى ..**وهل لأن الحرب مع إيران قامت واستمرت وانتهت بلا معنى في كل مراحلها، فأرادوا لها تعويضاً بنجاح موهوم، رخيص ودنيء، يتمثل في اجتياح الكويت؟ هل هو «تعويض» عن حالة من الإحساس بالعجز ـ بمفاهيم علم النفس ـ أمام إيران الكبيرة في الكويت الصغيرة؟** وإذا كان المثل يقول: «ليس المهم أن تصل إلى القمة وإنما هو أن تحتفظ بها».. فلماذا تخلى العراق فجأة وبلا مقدمات عن نجاحه في حربه مع إيران؟ **وهل الكويت كانت بالضرورة «كبش الفداء» لحالة من العداوة والاستعداء، حالة من «العدوان المخزون» الناتج عن ضغوط النظام «الصادم» في العراق وإحباطاته للشعب العراقي؟** (وأبرز وقائع هذه الإحباطات سيناريو الحرب العراقية الإيرانية وما انتهت إليه). ألا يفسر ذلك ما يقرره علماء النفس من أن المخزون النفسي المرضي الذي يعتمل في الفرد أو الجماعة يتوجه إلى أن يجد له منفذاً من «أضعف نقطة للمقاومة» line of the least resistence في الجسم؟ والكويت في ذلك هي «الضحية» لتلك الشحنة المخزونة من العدوان.. والكويتيون الأبرياء هم الذين يدفعون الثمن لحالة الخبل والاضطراب التي أصابت غيرهم؟ ظلم ما بعده ظلم..!!

تلك هي النتائج الطبيعية التي تترتب على الأنظمة التي تقوم على العدوان.. وأن ما قد يبدو هناك من قوة ظاهرة.. فإن توظيف هذه القوة واستثمارها في غير ما هدف أو

موضوع حقيقي للإنجاز والبناء.. لهو **قوة بلا عقل**.. قوة من المفروض أصلاً أن تكون أمانة في أعناقهم من شعوبهم.. إنهم خونة ومجرمون في حق شعوبهم.. لأنهم يبددون قوى وخيرات تلك الشعوب وإنها «**حماقة القوة**».. قوة هي الضعف وهي العجز بكل المعايير. والمقياس هو بالنواتج والمترتبات.

إن كل هذه المواقف بمظاهرها وأعراضها المتباينة لتشكل في مجملها ما يعرف بـ «عُصاب النجاح» ..success neurosis وهو شكل من أشكال الاضطراب النفسي لما قد يحرزه الفرد أو الجماعة من نجاح كاذب.. نجاح قائم على الدمار وعلى النصب والسلب والاغتصاب.. نجاح دوافعه مرضية لإرضاء النفوس المريضة.. وأساليبه تتنافى مع القيم الإنسانية.. ومآله بناء على رمال متحركة سرعان ما تذروه الرياح ..**إنه النجاح الذي يهوي بصاحبه من القمة، التي بناها قهراً واغتصاباً، إلى قاع الهاوية** ..تلك دروس الطغاة والظالمين.

هي دروس لمن يعقلها ..ولسوف تزول تلك التتارية لأنها ليست من «طبائع الأشياء».. كما زالت تتارية هولاكوخان وهتلر وغيرهما من الطغاة.. أعداء الحضارة الإنسانية.. إنه درس أليم لن يتكرر في أمتنا العربية والإسلامية ..**ولقد انتهى الدرس** وما بقي فيه من صيحات تصدر عن هؤلاء الطغاة من مخابئهم، وحيث صار كل منهم سجيناً وسجاناً لنفسه.. سجين ذاته.. سجين الخوف والفزع والإثم.. سجين شره وعدوانه ..**سجين الغباء والعماء**.

نقول أن ما بقي من صيحات هاتفة ومتهافتة لهي الصيحة الأخيرة للبجعة.. والبجعة لا تصدر صيحتها إلا عند الموت.

المجتمع العاقل في مقابل المجتمع غير العاقل[٣١]

وإن من نكد الدنيا أن تكون الدول النامية خاصة أكثر استهدافاً لأنظمة وقيادات غير عاقلة أو فاسدة، وأكثر عرضة للإصابة بمرض «عبادة الشخصية».. الأمر الذي «يسوق» مجتمعاتها ومصائرها وما تنتهجه من مناح وما تمارسه من أساليب إلى طرق غير مأمونة العاقبة.. هي «مجتمعات المخاطرة» At Risk ومآلها من الاضطراب ونقص الاستقرار.

إن المجتمع، شأن الفرد، قد يصح وقد يمرض.. ارتباطاً بعوامل موضوعية يأتي في مقدمتها ابتلاء المجتمع بنماذج مرضية لقادة مثل تلك المجتمعات.. وذلك ما يتناوله العالم السيكولوجي «ايريك فروم» في كتابه «المجتمع العاقل» (sane society) والذي يقدم فيه الشروط المواتية لصحة المجتمع، ومؤكداً على نماذج من المجتمعات التي يطلق عليها «المجتمع غير العاقل» أو «المجتمع المجنون» insane society الذي يغيب فيه

العقل، وتنطلق الانفعالات والعدوانات، وتسود لغة «المونولوج» وليست لغة «الديالوج»، وتتدافع «غرائز الموت» من مكامنها شراً ودماراً.

وإن من أبرز النماذج التي يعرضها ويحللها العالم (ايريك فروم) للمجتمع المجنون أو غير العاقل هو نموذج المجتمع الهتلري.. وهو مجتمع قام على أساس «عبادة الشخصية»، على الاستعلاء والاستعداء، وعلى المذهبة والقولبة في أيديولوجية النازية وتوجهاتها العدائية.. والنتيجة الطبيعية اختزان شحنة عالية من العدوان لا بد لها وبالضرورة - وفق قوانين علم النفس - من «تصريف» أو «تفريغ» أو «جدولة».. والتجربة الألمانية هنا تجسيد لتلك القوانين: عدوان موجه إلى الداخل (العدوان على الذات)، وعدوان موجه إلى الخارج (العدوان على الآخرين).. ذلك هو ما فعله هتلر.. عدوان على أعداء يراهم بالداخل حقيقة أو وهماً.. ثم عدوان على كل العالم بما فيه من انجلترا وفرنسا وحتى روسيا وأمريكا.. والسؤال: **أي عقل «عاقل» يجعل صاحبه في حالة حرب مع كل الدنيا؟ هو عقل لقائد فقد عقله!**

ولنتساءل: أليس التاريخ هنا يعيد نفسه؟! ألا تتكرر ظاهرة الهتلرية في ظاهرة الصدامية؟! ألا تكرر التجربة الصدامية نفس التجربة الهتلرية؟! إنهما تجربتان متماثلتان ومتطابقتان!!

فالصدامية في منشئها وفي بدايات تكوينها كظاهرة نظام في العراق، نظام من العدوانية، قد أفرغت شحنة من شحناتها العدوانية على شعبها، على الشعب العراقي.. (عدوان موجه إلى الداخل).. قمعاً وتصفية وتنكيلاً ومذابح.. مما نعرفه ومما لا نعرفه، وكذلك مما لم نرد معرفته أو تعامينا عن معرفته.. وبالتالي عجزنا عن البصيرة بالعاقبة والمآل.

ثم تتبدل وتتحول شحنات العدوان، وتغير وجهتها من الداخل إلى الخارج، في حرب ضروس بلا معنى.. ضد إيران (عدوان موجه إلى الخارج).. ثم ولا تلبث تلك الشحنة، المتأصلة والعاملة، في النظام العراقي.. وبعد فشلها على الجبهة الإيرانية، رغم وهم البطولة ورغم تجسيد الوهم.. أن تتحول إلى جبهة أخرى.. إلى الكويت.. في سلسلة أخرى من العدوانات التي فاقت كل أشكال وأساليب التعبير الوحشي عن تلك الشحنات العدوانية.

والسؤال الآن: **لماذا فاقت عدوانية الصدامية على الكويت كل أشكال وأساليب ومستويات عدوانياتها الأخرى؟!** وبعبارة أخرى، لماذا كانت عدوانية الصدامية على الكويت هي «ذُرْوة الخبرة المَرَضية» لعدوان النظام «الصادم» في العراق؟! وتتحدد الإجابة على هذا السؤال - في نظرنا - بسببين رئيسيين:

السبب الأول وهو الفشل (الإحباط) الذي انتهى إليه العدوان الصدامي في وجهته الإيرانية.. ووفقاً لقوانين علم النفس، فإن «الإحباط يستثير العدوان والمزيد من العدوان».

والسبب الثاني هو أن النظام الصدامي قد استمرأ العدوان.. كنهج مرضي يتأصل فيه ويتطور معه من فترة لأخرى في تاريخ هذا النظام.. وكممارسات لأنماط من السلوك العدواني لقيت تدعيماً وتعزيزاً مع كل خبرات العدوان السابقة بالداخل والخارج.. مثل المجرم الذي تتقوى وتتأصل فيه نوازع الجريمة وأساليبها. فبقدر ما يصدر عنه من الفعل الإجرامي، بقدر ما تتدعم وتتطور الجريمة لديه نزعة وفعلا.. (يفسر ذلك علم النفس بقوانين التعزيز ونواتج الاستجابة).

ويبقى سؤال: ماذا بعد؟! الله أعلم؛ فالتوقعات قائمة في استمرار التعبير عن عدوانيات هذا النظام طالما بقى هذا النظام!!.. ولكنه، وكما تحطمت الهتلرية في أوربا، فإنه، وبنفس منطق التاريخ، درس ودراسة، كانت الكويت هي الصخرة التي تحطمت عليها الصدامية.. **ومن يعقل دروس التاريخ.. فالتاريخ هو سياسة الماضي، والسياسة هي تاريخ الحاضر.**

وأود أن أذكر موقفاً علمياً له دلالته في هذا الشأن، فلقد كان لي لقاء في صيف عام (١٩٨٩)، مع أساتذة قسم علم النفس الاجتماعي بجامعة ميونخ بالمانيا الغربية، وحيث كنت أستاذاً زائراً بهذه الجامعة.. تناولنا فيه من بين ما تناولنا اتجاهات البحث في علم النفس الاجتماعي في ألمانيا، حيث قرروا أن من أبرز اهتماماتهم العلمية البحث في طبيعة تلك الحقبة المأساوية من تاريخ ألمانيا ـ وهي ألمانيا الهتلرية ـ والتي يتجنب الإنسان الألماني الحديث عنها كما لو كان يريد أن ينساها من ذاكرته كخبرة «مؤلمة صادمة»؛ وأبرز ما يهتمون به هو لماذا حدث ما حدث في هذه الحقبة؟ وما الذي أصاب الشخصية الألمانية حتى يوجهها النازي إلى ذلك المآل.. حرب وخراب وأسوار وحواجز وأيديولوجيات متباينة..؟ إنهم يقومون بالتشخيص الدقيق لتلك الحقبة حتى تكون «درساً» لا يتكرر.. إنها بحوث ترمي إلى «وقاية» المجتمع من الإصابة بمثل تلك الأوبئة من الأمراض الاجتماعية التي تنال من وحدته وتماسكه ومن قوته وحيويته.

ولنا أن نتساءل: هل ما جرى للكويت من جراء العدوان العراقي هو إفرازات لديناميات غير صحية في المجتمع العراقي في تلك المرحلة من القيادة الصدامية؟ هل هي أعراض غير صحية لمجتمع شقيق تؤهله «إمكاناته» الحقيقة لأن يكون مجتمعاً إنسانياً عظيماً؟! هل ما وقع للكويت وللكويتيين هو من قبيل ضحايا الجريمة وما لهذا من متضمنات ودلالات في علم ضحايا الجريمة (Victiomology).. جريمة النظام الصادم في العراق؟ تساؤلات تحتاج إلى تأملات وعبر.

أبعاد الخطر

إن العدوان العراقي على الكويت لهو بكل المعايير «مأساة» قد انطوت على تهديد بتصدع في البناء العربي وبتخريب في الإنسان العربي.. ظاهرة غير صحية كادت أن تستشري وتستفحل شراً مستطيراً قد يتمكن من جسم أمتنا ومن سلامته وكفاءته.. إن «بؤرة الخطر» المتمثلة في النظام العراقي المريض والبغيض لتعبر في ديناميا تها الداخلية عن ظاهرة «إبدال الأعراض» Symptom substitution، أي أن الأعراض الظاهرية للخطر يجري إبدالها من مكان لآخر ومن مظهر لآخر أو من عرض لآخر.. وتبقى أعراض الخطر في حالة من التبدل والتحول بين كافة مجالات ومواقف التعبير عن ذلك العدوان الشرس طالما ظلت «بؤرة الخطر» قائمة ونشطة.. وهذا ما يفسر تعدد أبعاد الخطر لهذه «النازلة» التي أصابت الكثير من جسم أمتنا العربية ومن كفاءته.

العدوان على الذات العربية[٣٢]

إن كل العالم ليدرك أن للشخصية العربية ثقلها العظيم من بين نماذج الشخصيات القومية للمجتمعات الإنسانية المختلفة.. فذاتنا العربية تتميز وتتمايز بعمقها الحضاري والإنساني والروحي أولا.. وقبل مصادرها المادية.. وإنه لمع الغزو العراقي «الصادم».. نجد أنفسنا وبفعل من أنفسنا.. من داخل أنفسنا لا من خارجها.. نعصف بكل تلك الإمكانات ونبدد المصادر والطاقات الكامنة في الإنسان العربي! ونتساءل ما الذي يخبئه لنا مثل هذا العبث غير المسؤول بأوطان أمتنا العربية والإسلامية وبشعوبها؟!

لقد تغير منطق الزمن، وتغير أسلوب الصراع بين الشعوب.. ولكن يبقى الهدف الغائي للعدو وهو أن نكون في مرتبة أدنى من شعوب الأرض وفي حالة متدنية وفق مقاييس التقدم الحضاري وهي مقاييس القوة الحقيقية.

لقد أقدم النظام «الصادم» في العراق ليبدد إمكانات الشخصية العربية ويقودها إلى دروب مظلمة ومسالك مغلقة، ويستهلك طاقاتها العقلية والوجدانية والعملية.. وما أكثرها وما أعظمها تلك الطاقات.

لقد أحدث العراق تصدعاً عنيفاً في بناء الشخصية العربية وفي توازنها وفي وظيفتها، ونزيفاً لا يحتمل في طاقاتها وفي قوتها، ومسخاً في صورة تلك الشخصية كما يدركها الآخرون في العالم من حولنا.

بل إننا إذا أردنا أن نكون أكثر صراحة وأكثر شجاعة، فإن العراق قد جعل من عالمنا كما أننا أعداء أنفسنا.. العدو هو من داخلنا.. وليس من خارجنا كما نوهم أنفسنا في

أحيان غير قليلة.

إن النظام العراقي «الصادم» لهو بمفهوم الإجرائية العلمية نظام عميل.. هو «زُملة» من العملاء الذي يحققون لأعداء أمتنا العربية كل ما ينشدونه من إضعاف لقوى انطلاقنا وتقدمنا.. إنهم الأيدي التي تنفذ ما يبتغيه أعداؤنا لنا من تعاسة ومن شقاء.. ومن إجهاض لكل إمكانات الازدهار لأمتنا العربية.. إنهم الأدوات والوسائط لتحقيق الأهداف والغايات بعيدة المدى التي يرسمونها لنا.

وإنهم ليسهمون معهم في تشويه صورة الإنسان العربي.. فلقد رسم بعض كتاب الغرب صورة زائفة سلبية باهتة عن «العقل العربي» و«الشخصية العربية».. وهي صورة من وحي تأمل أو انطباع طالما تصدينا لرفضه؛ وقد كنت واحداً من العلميين الذين ردوا بقوة على تلك الصورة المغرضة عن الإنسان العربي في محافل دولية وعربية.. فهل كنا نقدم (تحقيقاً عملياً) لتلك الافتراءات؟! هل كنا نحاول أن نثبت للعالم أن الإنسان العربي ذئب لأخيه العربي.. والكبير يلتهم الصغير.. والقوي يفترس الضعيف.. هل كنا نريد أن نقول للعالم إننا لا نعرف لغة الحوار وحسن الجوار، ولا نتقن أسلوب الفهم والتفاهم، وأن ما نعرفه هو لغة الانفعال والعصبية وضيق الأفق والتراشق بكل وسائل الاتصال اللفظي وغير اللفظي؟!

الفاقد النفسي(٣٣)

إن ما جرى للكويت هو محصلة نزعة مرضية، شريرة وشرسة، لتدمير الإنسان العربي من داخله.. وما تمخض عنها من **استنزاف نفسي** بكل أشكال اليأس والخوف والقلق.. وإجهاض لكل إمكانات الحركة، ولكل التقدم الذي يستحقه الإنسان العربي بحق.. وفي عالم من حولنا لا يشغله إلا حركته وتقدمه ورفاهيته. ويا لحسن حظهم ويا لسوء طالعنا! إننا نرى في أحداث الكويت طاقاتنا الإنسانية والروحية والمادية تهدر قتلاً وسحلاً.. سرقة واغتصاباً.. خديعة وخسة وجبناً.. وتميعاً في ذاتنا أمام العالم.

إن الإنسان العربي، وفي هذه المرحلة من تطور التاريخ الحضاري للإنسانية والذي يقترب من حضارة القرن الحادي والعشرين، مستهدف لأن يكون مستهلكاً بنزيف «الخطر» و«الإحساس بالخطر» و«توقع الخطر» والإحساس بالتهديد وانعدام الأمان.. وتلك معان تعبر عن حالة من القلق والاكتئاب بمفاهيم علماء النفس.

إنها «**حالة صدمة**» تضرب بكل ضراوة وتهز بكل عنف إمكانات وطاقات «العقل العربي» و«الوجدان العربي» و«العمل العربي».

إن ما اقترفه العراق في حق الكويت، بل وفي حق العرب وفي حق كل القيم

الحضارية والإنسانية، لهو «ظاهرة» تستدعي معها حالة من الاكتئاب بقدر ما نشرت معها أشكالاً من الحزن والضيق واليأس بأنفسنا وبحاضرنا ومستقبلنا.. ومن اللامعنى واللاهدف في كل ما يجري من فوضى وخبل.. ومن انعدام المعايير في تقدير الأمور والمواقف.. وتلك كلها مظاهر تعكس حالة من نقص «**الثقة الأساسية**» اللازمة لكل استقرار ولكل إحساس بالأمان.. واللازمة بدورها لخلق «**المناخ النفسي**» الصحي الذي ينطلق فيه العقل متحرراً من أسر الخوف والقلق والإثم والعداوة.

إن غزو العراق «الشقيق» للكويت «الشقيق» قد أحدث تلوثاً غير محتمل في المناخ العربي الذي صار ملبداً بسحابة ذرية تمطر علينا غبار العداوة والاستعداء، ونتعثر فيها بأوحال الشقاق والانشقاق، وتجرفنا داخلها ريح المخاطرة غير المحسوبة والأخطار المنذرة بالدمار.

وإن «الفاقد» ليس هو ما ضاع من مليارات الأموال في حرب العراق مع إيران، أو في غزوها ونهبها للكويت.. ولكن «الفاقد» الحقيقي والخطير هو «الفاقد النفسي».. في إمكانات ومصادر الإنسان العربي ذاته.. في كفاءات العقل والوجدان والعمل.. وفي حسن استثمار تلك المصادر في اتجاه التقدم.

التوحد مع المعتدي

ثم.. ومن مصائب الدهر في أزمة الخليج نشوء ظاهرة «التوحد مع المعتدي» لدى البعض ممن ساروا في «مسايرة» الموقف العراقي الصادم.. وممن رفضوا صوت العقل العربي.. وأغلب الظن أن دوافعهم إلى ذلك هي دوافع الخوف تحسباً لبطش أو اجتياح أو عقاب أو تصفية لحسابات. أو انتظاراً لمغنم أو طمعاً في كسب... وتلك ظاهرة تتعلق بميكانزم «رد الفعل العكسي» reaction formation، وهو بالمفهوم العلمي «ميكانزم دفاعي» يعمل على كف أو تغطية نزعات أو حفزات تهديدية Threatening impulses أو التغلب عليها، وذلك باتخاذ نزعات أو حفزات عكسية.. أي اتخاذ المواقف المضادة.. فالوقوف «ضد» المعتدي يتحول بالنقيض إلى وقوف «مع» المعتدي.. وتلك ديناميات غير صحية تتعاكس فيها الأسباب مع النتائج، وتختلط المقدمات بالمترتبات.

هذه المواقف الخالية من معانيها الحقيقية، أي من معانيها الحضارية والإنسانية، بل والمنافية لتلك المعاني.. لا بد وأن تستدعي بحكم التتابع المنطقي لها وابلاً من التبرير والادعاء والإيهام.. ومن إشاعات «دق الأسافين».. هاهم كانوا يدفعون الموقف للانشغال عن مأساة غزو الكويت، في الافتعال والانفعال بقضية يطلقون عليها قضية الحرب والجهاد ضد الاستعمار والكفار.. وهي لعبة رخيصة تنطوي على الاستهانة بعقول الشعوب ومن ثم بكرامتها، وتضليلها بشعارات وكلمات تعكس ما هو أشبه بالتفكير الفصامي الذي يقيم

علاقات بين موضوعات أو متغيرات لا رابط حقيقي بينها.. أليس تحريك الشعور الديني أو استعدائه (وهو شعور يبرأ من كل عداوة أو استعداء) هو استثمار للعبة أجاد الاستعمار فنونها وأتقن أساليبها؟!

ثم.. وينبغي أن نواجه أنفسنا بصراحة ودون عقد.. ما هذا الضجيج أو الاستعداء الذي يثار من آن لآخر إزاء أمريكا؟! ولنا في أيديولوجية الكتلة الشرقية دروس.. فهي أيديولوجية أخذت تتراجع وتنحسر من تلقاء نفسها أمام أمريكا «الرمز» ـ رمز الحرية.. وقوة التقدم العلمي والتكنولوجي والحضاري.. والدروس هنا هو أن الكثير من تلك الإيديولوجية قام على أساس من الافتعال والانفعال بعدو هو أمريكا.. إنها لعبة «**توهم الأعداء**» و«**خداع الذات**» ..لاختلاق أدوار ووظائف تشتت الانتباه وتبدد الطاقات وتحول ما يتبقى من طاقات جهيضة إلى قضايا أو مواقف ثانوية أو موهومة!!

عقدة الذنب وضمير التاريخ(٣٥)

لقد كانت الصورة التي انطبعت في كل الأذهان عن الإنسان العراقي صورة قاتمة مأساوية.. فهو يغزو ويقتل أخاه الكويتي الذي وقف معه بكل جوارحه وإمكاناته أثناء الحرب مع إيران.. ويشرد آلافاً من الكويتيين.. يقتل ويسلب ويغتصب.. هل هذا هو الإنسان العراقي؟ هل هذه هي الشخصية العراقية التي نعرفها في أصولها الحضارية؟ إن هذا الغزو لمن شأنه أن يترك في نفس كل عراقي إحساساً أليماً بالإثم.. قد يكون من قبل عقدة الذنب التي سوف تؤرق ضميره التاريخي.. وحتى إذا حاول من قبيل خداع الذات أن يجد التبرير لتلك الآثام، فإنه لن يعطيه براءة أو شفاء.. إلا بالعودة إلى العقل وبالاحترام والتراحم وبتحقيق الخصال الأصيلة للإنسان العربي في تعامله مع أخيه العربي ومع المجتمع الإنساني!!

العدوان على البيئة(٣٦)

لقد فزع العالم منذ سنوات من كارثة «تشرنوبل»، وهي كارثة بيئية وقعت بسبب خلل أو خطأ تكنولوجي غير مقصود لم يكن في حسبان الاختصاصيين والعاملين في ذلك المفاعل النووي. وهاهو العالم الآن، ومن خلال منظمات دولية وجمعيات علمية وأحزاب سياسية، يعيد حساباته في أصول التعامل الحضاري للإنسان مع البيئة، وفي أصول الاحترام لقوانين التوازن في البيئة ـ تلك القوانين المتأصلة في صميم هذا الكون الذي نظمه الله سبحانه وتعالى مصفوفة منسجمة متناغمة ولوحة فنية رائعة وسيمفونية مبدعة تعزف بكل ما هو جميل وتنطق بكل ما هو خير للإنسان وللحيوان وللطير، وبما في الأرض والسماء من مصادر وكنوز الخير والرخاء للبشرية.

إن العالم الآن، وبحكم الثورة العلمية التكنولوجية وارتباطاً بالموجة الحضارية الثالثة المميزة لتكنولوجيات هذا العصر، لهو في فزع من استفحال الخطأ أو اتساع رقعة الخلل في قوانين التوازن الأيكولوجي ارتباطاً بعلاقة الإنسان بالبيئة وبمواقفه منها. ولهذا، تتعالى الصيحات العلمية والسياسية والإنسانية لتدق ناقوس الخطر إزاء اختلال التوازن (الهوميوستيزز) الذي يظهر في كثير من أعراض «باثولوجيا البيئة» في عالم اليوم.

القيم البيئية في عالم متحضر

ولعلاج تلك «الأزمة البيئية» يؤكد الاختصاصيون على التوجه القِيَمِي للمجتمعات الإنسانية، وللأفراد والجماعات الاجتماعية، في أصول وأسلوب التعامل مع البيئة، سواء البيئة الطبيعية أو البيئة التي من صنع الإنسان. وهو توجه يؤكد في المحل الأول على أن التعامل مع البيئة وعلاقة الإنسان بها وتفاعله معها، لا بد وأن يترشد بنسق قيمي، فيه تنسجم القيم كتفكير وتعقل، وكوجدان وضمير ومشاعر، وكسلوك وفعل وأداء في التفاعل مع البيئة.

تلك هي القيم البيئية التي ينادي بها العالم الإنساني المتحضر في هذا العصر، والتي ينشد منها **«إرهاف الإحساس» في الإنسان والمجتمعات بعظمة الله سبحانه وتعالى في ذلك الخير العميم الكامن في هذا الكون** ..وما على الإنسان إلا الرعاية والحماية لذلك الخير ليكون له منافع جد كثيرة وعظيمة.

ويا للحسرة، أن يكشف النظام الصدامي في العراق أيضاً عن ذلك الوجه القبيح الذي يعمى أن يرى ذلك الجمال أو أن يدرك ذلك الخير أو أن يتسامى بعظمة الخالق عز وجل، بل إن تمتد يده الملطخة بالدماء إلى البيئة فيعتدي عليها وعلى كنوز خيرها من البترول في الكويت الذي يحرقه ناراً ويطلقه في الخليج ضياعاً ودماراً، وتلويثاً للماء الذي جعل منه الله سبحانه وتعالى كل شيء حي.

صدمة للبيئة

لقد شغل الإنسان الكويتي في تاريخه بعمارة أرضه، تفاعلاً مع بيئته وانفعالاً بها، وبكل المعاناة وبلذة المعاناة في سبيل بناء بيئة إنسانية حضارية في عالمنا العربي، في ركن منه كريم وعزيز، وهو الكويت.. درة الخليج.. ثم جاءت نازلة هذا العدوان المسعور على البيئة مما أفرزه النظام الصدامي لتكون تعبيراً أيضاً عن «بؤرة المرض» المتأصلة فيه وعن شهوة التدمير والإيذاء والتخريب، وعن حالة من «العدوانية» التي تتكشف في كل يوم عن المزيد والجديد من البربرية والوحشية؛ فهذه البؤرة تنزع وفي كل لحظة إلى استكمال

دائرة الشر وتوسيع تلك الدائرة إلى أكبر قدر ممكن من التخريب والتدمير وتعميقهما أثراً بعيداً يمتد إلى سنوات عديدة من الهدر والاستنزاف في طاقات أمتنا العربية والإسلامية وفي كفاءاتها في مواجهة العصر وتحديات المستقبل.

فلم تسلم البيئة ـ البيئة الطبيعية أو البيئة العمرانية والمشيدة التي من صنع الإنسان الكويتي ـ من عدوانية الصدامية.. فهاهي البيئة العمرانية يصيبها التخريب والتدمير وكذلك النهب والسلب لمحتوياتها من أجهزة وأدوات حضارة العصر.. وهاهي البيئة الحضارية المتمثلة في تراث الكويت قد امتدت إليها يد العدوان، فراحوا يسلبون وينهبون متاحف الكويت ودور المخطوطات والتراث وما فيها من كنوز للحضارة العربية الإسلامية.. بل ولم تسلم الجوانب الأيكولوجية الأخرى كالحيوان والنبات من عدوانية الصدامية، فأبادوا الحيوانات والنباتات التي كانت تزخر بها حدائق الحيوان والمتنزهات وحدائق الأطفال.

ثم هناك تلك البيئة الجليدية المشيدة في تلك الصالة الجميلة بمدينة الكويت للتزحلق على الجليد والتي كان يلهو فوقها الأطفال بهجة وحيوية ومرحاً بسعادة الطفولة.. قد حولوها إلى مقبرة جماعية للكويتيين الذين تصدوا لذلك العدوان وهم أبطال الوطن وشهداء عند ربهم يرزقون!!.. إنها أشبه بالمقابر الجماعية التي اشتهرت بها عدوانية الهتلرية في معسكرات الاعتقال النازي في «داشاو» و«آوشويتز» وغيرهما في ألمانيا!!

الجريمة البيئية الأولى في تاريخ الحضارة الإنسانية

إن العدوان «الصدامي / الصادم» على البيئة في الكويت لهو الجريمة البيئية الأولى في تاريخ علاقة الإنسان ببيئته؛ وينبغي لذلك ألا تتهاون الكويت والمجتمع العربي وأسرة المجتمع الدولي في تقديم مدبري ومرتكبي هذه الجريمة إلى محاكمة دولية، وإعداد وثيقة الاتهام لنظام «صدام» بالعراق في هذا الشأن.. ولتكن هذه الجريمة المروعة مدعاة إلى إنشاء محكمة دولية تحت إشراف الأمم المتحدة لمحاكمة أعداء ومجرمي البيئة في العالم، شأن كل محاكمات مجرمي الحرب، ولتكن هذه هي «**محكمة البيئة الدولية**»، وحيث ينتظم عملها بالمواثيق الدولية التي تنظم علاقة الإنسان والمجتمعات الإنسانية بالبيئة في إطار من المبادىء والقوانين الملزمة لجميع الدول الأعضاء بالأمم المتحدة، وتكون لها فعالياتها في تنفيذ قراراتها وأحكامها.

وهذا الاقتراح الذي نتقدم به لم ينشأ من فراغ؛ فقد قطعت أسرة المجتمع الدولي شوطاً كبيراً في عمليات تقنين حماية البيئة الطبيعية وترشيد علاقة الإنسان بها؛ وهو ما يتمثل في منظمات ومؤتمرات وبرامج ومواثيق حماية البيئة في الأمم المتحدة، وفي المنظمات الإقليمية والمحلية بدول العالم قاطبة؛ وكان لأسرة المجتمع العربي شأن كبير

في دعم برامج حماية البيئة والتربية البيئية.

لقد برزت قضايا حماية البيئة من الأخطار والمخاطرات التي قد ينزع إليها الإنسان ويمارسها في علاقته بالبيئة وفي تفاعله معها، وذلك في أول مؤتمر دولي تنظمه الأمم المتحدة عن البيئة الإنسانية في يونيو من عام ١٩٧٢ في استكهولم بالسويد، وحيث تأكد أن مشكلات التدهور البيئي هي نتاج اتجاهات ومواقف سلوكية نحو البيئة، سالبة أو غير بناءة أو غير واعية. وقد صدر عن مؤتمر استكهولم «الإعلان العالمي عن البيئة الإنسانية» (The Declaration of the United Nations Conference on Human Environment) ويتضمن ستة وعشرين مبدأ يحدد ويقنن ويرشد عمليات التفاعل بين الإنسان والبيئة، بهدف حماية البيئة الطبيعية وتنمية البيئة الإنسانية. وقد ورد في هذه الوثيقة «إن حماية البيئة وتحسينها للأجيال الحالية والمقبلة قد أصبح هدفاً ملحاً للإنسانية».

كما تمخض عن هذا المؤتمر «برنامج الأمم المتحدة للبيئة» United Nations Environment Program (UNEP) لتنظيم وتعزيز جهود الدول الأعضاء في الأمم المتحدة فيما يتعلق بقضايا حماية البيئة.

ولقد كان من المنطقي أن تبرز التربية البيئية في مقدمة قضايا حماية البيئة فيما يتمثل في مؤتمرين دوليين أساسيين وهو «مؤتمر بلجراد» في أكتوبر من عام ١٩٧٥، و«المؤتمر الدولي الحكومي للتربية البيئية» (Intergovernmental Conference on Environmental Education) الذي عقد في مدينة تبليسى بالاتحاد السوفييتي في أكتوبر من عام ١٩٧٧. (وكلاهما قد نظمه اليونسكو بالتعاون مع «برنامج الأمم المتحدة للبيئة»). وقد صدر عن مؤتمر بلجراد ميثاق عالمي (ميثاق بلجراد) يحدد أهداف التربية البيئية وجماعات الهدف منها، بالإضافة إلى إقرار ما يعرف بأخلاقيات البيئة. أما مؤتمر تبليسى فقد أصدر وثيقة دولية مشهورة تتضمن إحدى وأربعين توصية تغطي المجالات المختلفة للتربية البيئية للإنسان وللجماعات وللمجتمعات.

ومما يذكر في هذا الشأن، أن الكويت قد نظمت مؤتمراً بالتعاون مع اليونسكو والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وهو (اجتماع الخبراء الإقليمي في الدول العربية حول التربية البيئية) في أكتوبر عام ١٩٧٦ (أي ما بين مؤتمري بلجراد وتبليسى)، بهدف بناء استراتيجية عربية للتربية البيئية لتقديمها كورقة عمل عربية للمؤتمر الدولي الحكومي للتربية البيئية في تبليسى عام ١٩٧٧، وكانت ورقة العمل هذه من الوثائق الهامة التي استندت إليها فعاليات هذا المؤتمر.

وتواصلاً مع هذا الاهتمام بقضايا البيئة والتربية البيئية، نظمت الكويت بالتعاون مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم مؤتمراً آخراً في أبريل من عام ١٩٧٩، وهو (اجتماع

خبراء التربية البيئية في الدول العربية)، والذي اتخذ توجها عملياً من حيث ترجمة أهداف ومبادىء التربية البيئية إلى اتجاهات نفسية وإلى مواقف وإجراءات عملية وممارسات سلوكية في إطار من الوعي البيئي والضمير البيئي للإنسان في تفاعله مع البيئة.

.. وها هنا يأتي العدوان «الصدامي/الصادم» على البيئة في الكويت ليعصف بجهود الإنسان في حماية البيئة الإنسانية وفي تنميتها بالعمران، لا هدمها بالدمار، وهو عدوان على كل ما حققته الإنسانية بالجهود الدولية والعربية من إنجازات فذة في مجالات حماية البيئة وفي البحث في قضايا التنمية من المنظور البيئي.

لقد سعرت النار يا نيرون!! فهاهو العدوان على البيئة الطبيعية وعلى كنوز خيرها.. كعرض من أعراض غياب العقل لنيرون العراق.. بإطلاق بترول الكويت في مياه الخليج، وإشعال آبارها ناراً ودماراً.. يكشف في كل يوم عن تعدد أبعاد الخطر الذي تنضح به بؤرة ذلك الشر المستطير من تخريب في البيئة ومن تدمير للعمران ومن قتل وسلب ونهب.. ومن التداعيات المختلفة في أحداث ذلك العدوان المشؤوم والملعون.

نداء إلى الأمم المتحدة

وهكذا فإن هذا العدوان المعمم (أو تعميم العدوان) المتفجر من ذلك المنبت المرضي الكامن في النظام الصدامي في العراق قد تحول في بعض مظاهره أو أعراضه إلى عدوان على البيئة الطبيعية. وإننا لنرى في هذا العدوان على البيئة ونواتجه القريبة المدى والبعيدة المدى «**أزمة إيكولوجية**» من نمط فريد يتمثل في كونها تجربة جديدة بالنسبة للمجتمع الإنساني، الأمر الذي يتطلب من المجتمع الإنساني، متمثلاً في دور الأمم المتحدة والمنظمات الدولية والعربية لحماية البيئة، أن يدخل في السياسات الدولية الخاصة بحماية البيئة عدداً من المتغيرات الأساسية التي تبدت من هذا العدوان المسعور على البيئة، ومن صدمته للبيئة، وهي متغيرات قد تكون جديدة في خبرة المجتمع الدولي فيما يتعلق بالبيئة، كما يلي:

١ - إنها الجريمة البيئية الأولي في تاريخ الحضارة الإنسانية؛
٢ - وهي جريمة منظمة، تقوم على القصد والعمد والنية؛
٣ - كما أنها جريمة يدبرها ويديرها نظام حاكم وفي دولة هي عضو في منظمات الأمم المتحدة وما يترتب على هذه العضوية من التزامات بالقوانين والمواثيق الدولية؛
٤ - وهي كذلك جريمة تأتي في عصر تتعاظم فيه الجهود الدولية في سبيل حماية البيئة وفي سبيل مواجهة أخطار تدهور البيئة ووقايتها من «الأيكولوجيا المرضية»، حتى إنهم ليطلقون على عصرنا الحالي «عصر البيئة الطبيعية»؛

٥ ـ **وثمة متغير جديد** ينبغي أن يضعه الاختصاصيون في علوم البيئة في اعتبارهم وأن يكون موضوعاً للبحث العلمي وجانباً من جوانب قوانين وأخلاقيات حماية البيئة، ألا وهو حماية البيئة من التلوث النفسي للإنسان كما يصيب قيادات أو أنظمة بعض المجتمعات.

وحيال ذلك المتغير من «البائولوجيا الاجتماعية أو السياسية» تتبدى قضايا ومشكلات «البائولوجيا البيئية» بشكل خطير ومروع .**ولعل العدوان الصدامي على البيئة هو التجربة الإنسانية الأولى في العلاقة الوثيقة بين تلوث الإنسان، أو إن شئنا لوثة الإنسان، وبين تلوث البيئة.**

وذلك نمط جديد من أنماط تلوثات البيئة ربما لم ينتبه إليه المجتمع الإنساني بعد. ولعل ذلك يدعونا إلى الدعوة إلى أن تتبنى المنظمات والمؤتمرات الدولية المعنية بحماية البيئة ذلك المتغير الخاص بالتلوث النفسي الذي قد يصيب قيادات أو أنظمة بعض المجتمعات، وأن تسعى إلى تضمينه كمتغير أساسي من متغيرات حماية البيئة وفي مواثيقها وإجراءاتها.

٦ ـ ولعلنا كذلك يمكن أن نطرح هذه القضية بشكل أكثر تقديراً في المستقبل لتفاعل مثل تلك المتغيرات.

إننا الآن، ومع تجربة النظام الصدامي في العراق، أمام **شكل جديد من أشكال التلوث**، وهو «**التلوث النفسي**» في نظام أو قيادة بعض المجتمعات، أي في مثل تلك الأنظمة التي تقوم على الطغيان، وعلى «عبادة الشخصية» وعلى تغييب العقل، وعلى إغفال اعتبار الإنسان كقيمة عليا، وعلى غياب الديمقراطية كأسلوب حياة. وهي بالتالي أنظمة تنطوي على أخطار ومخاطرات لا تحمد عقباها. بل وقد يصعب مع هذا الشكل من أشكال التلوث «التنبؤ» بما قد يخبئه الزمن للبيئة وللإنسان من أخطار أو كوارث يصعب بشأنها تحديد التوقعات والتنبؤات.

ومن ثم فإن مستقبل البيئة الإنسانية محتوم بصحة المجتمع وبعقلانية قيادته.

رد فعل الخطر

إن «منبت» (onset) مشكلة/أزمة الخليج هو تلك البؤرة من المرض التي تطور نموها كظاهرة تأصلت في نظام القيادة الصدمية في العراق، وتلك بؤرة تنطوي على مخزون من الشر، وفي حالة من التعميل والتشغيل، تتدافع منه «غرائز الموت» دماراً لكل ما حولها ولكل ما يمكن أن تناله.. في عدوانات متنوعة ومتبدلة.. ومن طبيعة الأشياء أن يكون رد الفعل لهذا الخطر (رد فعل الصدمة) بأبعاده ومظاهره المختلفة هو تلك التغيرات النفسية الدالة على «حالة الصدمة» لدى الفرد والمجتمع.

ففي دراسة تجريبية (إكلينيكية)[٣٧] أجريناها إبان الأزمة في الفترة من أكتوبر ١٩٩٠ حتى مارس ١٩٩١، بهدف تحليل وتشخيص المظاهر والآثار النفسية التي لازمت أزمة عدوان النظام العراقي على الكويت من حيث وقعها على الناشئة من الأطفال والمراهقين الكويتيين، كشفت نتائج التحليل العاملي للبيانات المجتمعة عن ثلاثة عوامل أساسية يتجمع في كل منها عدد من التوجهات والاستجابات والمظاهر/ الأعراض التي تكشف عن الآثار النفسية التي لازمت الأزمة. وتتحدد هذه العوامل في جانبين وهما:

- الجانب السلبي، ويتمثل في عاملي:

١ - القلق الوجودي.

٢ - ردود أفعال الاكتئاب الصدمي.

- الجانب الإيجابي، ويتمثل في عامل:

٣ - الإرادة والمواجهة.

وتلك هي المتلازمات النفسية لأزمة الخليج كرد فعل للخطر الذي خبره الوطن والمواطن.

القلق الوجودي

يبدو القلق الوجودي في زُمْلَة من المظاهر/الأعراض التي تؤلف الشعور بالقلق كرد فعل لحالة «الصدمة» وللخطر ولتوقع الخطر تلازماً لأشكال وأساليب تلك المأساة والملهاة التي عاناها الوطن والمواطن من جراء ذلك العدوان التتاري على الكويت.

ويتحدد المضمون الرئيسي لمعظم مكونات ظاهرة القلق في الوطن والوجود والمستقبل؛ وتتضمن تلك الظاهرة مجموعة من المكونات، تتمثل المكونات الانفعالية للقلق في مظاهر كالقلق الزائد على الوطن والشعور بالعداوة من الجار والشقيق والشعور بعدم الأمان والخوف من المستقبل والشعور بالضيق إزاء الفاقد والخسارة وسرعة الاستثارة وسورات الغضب. وتبدو المكونات المعرفية للقلق في عدد من المظاهر ومنها الإحساس بانعدام المعايير لما يجري من أحداث والتفكير الزائد في احتمالات الخطر في المستقبل وحالة الترقب والانتظار للاحتمالات والتوقعات. وتأخذ المكونات الاجتماعية للقلق مظاهر معينة تتمثل في الإحساس بالوحدة/العزلة وفي الإحساس بالغربة وفي نقص الثقة في الآخرين. أما المكونات السلوكية للقلق فتبدو في مظاهر السلوك الدال على العنف والخشونة والاحتراز والتشاجر والعصبية كما يبدو في تناقص الفعالية والنشاط، وفي السلوك الاستهلاكي الزائد.

تعكس هذه المكونات للقلق ومظاهره نمطاً من أنماط القلق هو القلق الوجودي existential anxiety الذي يُعد رد فعل عادي أو طبيعي لحالة الصدمة ولخبرة المعاناة التي عاشتها الكويت وطناً ومواطناً. فالقلق الوجودي هو قلق عادي أو طبيعي إزاء أحداث أو مواقف تبعث على التهديد والخطر. وهنا يعني القلق «حالة من الاستثارة تنتج بسبب التهديد لخير الإنسان ورفاهيته well-being» (٣٨). ويميز «فرويد» نمطاً من أنماط القلق يسميه بالقلق الواقعي reality anxiety، وهو القلق الذي ينشأ عن تهديدات واقعية من البيئة(٣٩). ويذهب روللو ماي May في كتابه (معنى القلق) في عام ١٩٥٠ إلى أن وجهة الاستجابة للقلق هي التي تجعل الإنسان في حالة من النشاط والفعالية توجه إلى استعادة التوازن وإعادة البناء، أو أن وجهة الاستجابة للقلق تأخذ حالة من التعطيل والتوقف والانغلاقية. وذلك هو الفارق ما بين القلق العادي/ الطبيعي والقلق المرضي/ العصابي(٤٠).

ويحدد بعض الباحثين شروطاً أو ظروفاً عامة تكمن وراء نشوء القلق؛ فالقلق ينمو:

١ ـ في تلك الظروف التي يصعب فيها التخلص من الموقف الباعث على الخطر أو استبعاد ذلك الموقف.

٢ ـ عندما يكون توقع الأذى أو المضرة قوياً.

٣ ـ في حالة ما يصعب القيام برد فعل «إقدامي» لمواجهة الخطر.

٤ ـ في حالة التهديد بسحب السند الانفعالي اللازم في تلك المواقف الباعثة على الخطر أو في حالة غياب أو افتقاد ذلك السند.

والقلق في ذلك هو استثارة انفعالية وجسمية لم تتوفر لها الظروف الملائمة لاستهلاكها أو تفريغها بواسطة العمل أو النشاط الملائم، أي استيعاب تلك الاستثارة بواسطة الاستجابة الملائمة. ومن شأن الاستجابة غير الملائمة لتلك الاستثارة أن تكشف عن نفسها في شكل القلق الصريح أو الظاهر (٤١).

ومن المظاهر المميزة لحالة القلق الوجودي أن الاهتمام بالمستقبل وتوقعاته من المتغيرات المميزة لتلك الحالة؛ فالقلق هنا يدور حول توقعات المستقبل واحتمالاته كما يؤكد أصحاب العلاج الجشطلتي(٤٢). وهذه الحالة قد تنعكس على معنى الحياة والوجود ارتباطاً بالإحساس باللامعنى إزاء ما يجري في العالم من حوله. وهنا يذهب بعض المحللين النفسيين الجدد إلى أن الطراز الأصلي (Prototype) للقلق هو شعور الفرد بأنه مهدد وضعيف وسط عالم عدواني مليء بالتناقض(٤٣).

لقد ارتبط البحث في أنطولوجيا القلق Ontology of anxiety (أو المنحى الوجودي في تفسير القلق) بالمضامين المعرفية أساساً لمعاني الحياة والوجود والعلاقات والمستقبل، وحيث تتفاعل تلك المعاني مع إحساس الإنسان باللامعنى واللامعيارية واللاقوة في تفاعله مع

المواقف والأحداث والعلاقات وفي تفسيره لها، وحيث يكون الوجود ككل هو موضوع القلق.

ردود أفعال الاكتئاب الصدمي

ولقد كشفت نتائج البحث عن تجمع عدد من المظاهر/الأعراض الانفعالية والمعرفة والفسيولوجية والسلوكية الدالة على نشوء ردود أفعال اكتئابية (depressive reactions)، أي هي تلك المظاهر/الأعراض التي نشأت كرد فعل لحالة الصدمة، وهو رد فعل متوقع إزاء الأحداث والمواقف والخبرات المأساوية التي خبرها أبناء الوطن مع تلك الصدمة.

ويظهر من تناولنا لتحليل عامل (ردود أفعال الاكتئاب الصدمي) أن مكونات هذا العامل ومظاهرها/ أعراضها تتفق مع الصورة الكلينيكية للاكتئاب كما تحددها نتائج البحوث في هذا الميدان.

فالأشخاص ذوو ردود الأفعال الاكتئابية يستدمجون /يستدخلون (internalization) صراعاتهم الأصلية من خلال عمليات القنوط والجزع وخفض الفعالية النفسية. ويخبرون في هذه الحالة إحساساً بالذنب، وبانخفاض تقدير الذات، وبالمشاعر المتناقضة تجاه الناس المعنيين، كما يخبرون إحساسا بتناقص القوة والفعالية، وبالوحدة النفسية. وإذا كان الباحثون في اكتئاب الطفولة قد يتناولونه على أنه حالة وقتية لأزمة نمائية، أو على أنه حالة من حالات الذهان، أو على أنه رد فعل حاد للحزن من الفقدان والخسارة لأشخاص أو أشياء أو موضوعات[٤٤]، فإن ما ظهر من نتائج دراستنا من مظاهر/أعراض للاكتئاب لدى مجموعات من الناشئة الكويتيين ليست مرضاً للاكتئاب العصابي أو الذهني، وليست طرازاً أصليا (prototype) للاكتئاب كاضطراب مزمن وحاد مما ورد عن الاكتئاب في (فئة الاضطرابات الوجدانية) في «الدليل التشخيصي والإحصائي الثالث DSM-III للاضطرابات النفسية/العقلية الصادر عن الرابطة الأمريكية للطب النفسي».

أما تلك المظاهر/ الأعراض للاكتئاب التي ظهرت من نتائج تلك الدراسة فهي ردود أفعال (reactions) لصدمة العدوان على الوطن والمواطن قياساً إلى القاعدة التي تقرر (أن لكل فعل رد فعل). وعليه، فإن ردود الأفعال الاكتئابية هي انعكاسات طبيعية ومتوقعة لهذه الصدمة العنيفة، بل إذا شئنا فإن ردود الأفعال الاكتئابية هذه كانت حالة عامة خبرها وعاناها كل إنسان وكل جماعة اجتماعية وكل مجتمع إنساني في كل العالم تقريباً إبان أزمة العدوان العراقي «الصادم»، بقدر ما كان هذا العدوان «صدمة» للإنسان ولحضارته ولقيم الخير والحق والعدل.

ومن ناحية أخرى، تعد ردود الأفعال الاكتئابية الملازمة للصدمة ظاهرة وقتية، يمكن أن تزول بزوال المؤثر؛ ولكن مواجهة هذه الظاهرة وخفضها أو علاجها رهن بالتدخل

السيكولوجي الفعال من خلال استراتيجيات ملائمة للإرشاد/ العلاج النفسي.

الإرادة والمواجهة

ومن ناحية أخرى، تكشف نتائج الدراسة أنه بجانب المتلازمات السلبية للأزمة، كانت هناك أيضا المتلازمات الإيجابية التي تتمثل في الاستثارة والتنشيط لقوى الإرادة والتحدي للأزمة وللاستيعاب والمواجهة لها، ويتفق ذلك مع ما تقرره «نظرية الأزمات» من أن الأزمات ظاهرة من «الخطر مع الفرصة»، أي أن للأزمات وجهتين:

(١) حالة الخطر وما تستدعيه من ردود أفعال نفسية سلبية، (٢) الفرصة للنمو، وهي تلك القوى الدافعية والإرادية المستثارة تجاه امتصاص الأزمة واستيعاب مترتباتها، استعادة للتوازن وعملاً على إعادة البناء[٤٥].

ويتبين من تجمع طائفة من الاتجاهات والدافعيات والأفكار والنزعات السلوكية في العامل الخاص بهذا البعد الإيجابي للأزمة (الإرادة والمواجهة) أنها تكشف عن تعاظم الإحساس بالثقة في الله عز وجل وفي الوطن وفي قيادته الشرعية، وعن تنامي القدرة على تحمل الصعوبات ومواجهة الضغوط، وعن تعزيز السلوك الإرادي القائم على التضحية والشجاعة والاستشهاد، وعلى الترابط بين أبناء الوطن. وفي كل ذلك يبرز الهدف الأكبر وهو إعادة البناء للوطن وللمواطن.

هذه العناصر في تفاعلها مع بعضها تؤلف ذلك التوجه المتنامي وهو «الإرادة والمواجهة»، وهو توجه لم تستطع معه وحشية ذلك النازي أن تنال منه ومن قوته. والإرادة هي وحدة الشعور بالواجب والهدف والمسؤولية وتعبئة الجهود في وعي نحو الهدف الأعظم وهو الوطن وعزه وعزته.. ولنسأل أنفسنا: لماذا تلك الإرادة التي تعزز من قوة الكويتي من داخله، رغم أشكال وأساليب القهر من خارجه؟ والإجابة هي «إرادة المعنى» و«إرادة الوجود».. معنى الكويت.. والوجود الكويتي الحضاري والإنساني [٤٦]..

ويتضح هذا التوجه كذلك في فعالية المواجهة للأزمة ولمترتباتها، بل إن تفحص مكونات عامل (الإرادة والمواجهة) ليتفق في كثير منه مع خصائص المواجهة الفعالة للأزمات (effective coping) كما تحددها بعض النظريات الأساسية في هذا الميدان [٤٧].

وفي هذا يتأكد بجلاء أن فترات الأزمات هي مواقف من المسؤولية ومن البصيرة بمعنى الحياة، وحيث تتطلب تغيراً أساسياً عند الناس في اتجاهاتهم نحو الحياة. يقول «فرانكل» في معرض تناوله للمضامين السيكولوجية للحرب العالمية الثانية[٤٨]: «لقد كان علينا أن نعلم أنفسنا، كما كان علينا أن نعلم الأشخاص الذين استبد بهم اليأس، بأن ما هو

متوقع من الحياة ليس في واقع الأمر هو موضع الأهمية، بل إن ما يعنينا هو ما الذي تتوقعه الحياة منا. كان علينا أن نتوقف من السؤال عن معنى الحياة وأن نفكر بدلا من ذلك في أنفسنا كما لو أنها في موضوع تساؤل من قبل الحياة. وإن إجابتنا ينبغي أن تقوم لا على الكلام أو التأمل، ولكن على العمل الجاد والمسلك الحق. فالحياة تعني في النهاية الاضطلاع بالمسؤولية لكي يجد الإنسان الإجابة الصحيحة لمشكلاته ويحقق المهام التي تفرضها عليه بصفة مستمرة».

الفرصة الضائعة في حمأة الأزمة

تكشف مفاهيم «نظرية الأزمات»، كما سبق تناوله، عن أن للأزمة وجهتين: الخطر والفرصة. وقد عرضنا في الجزء السابق لمصدر الخطر ولأبعاد الخطر ولرد فعل الخطر. أما الوجهة الأخرى للأزمة، وهي الفرصة، فقد تفرز تفاعلات الأزمة ومتغيراتها معان وتوجهات ومواقف عاقلة في «إدارة الأزمة»، للوقاية من الخطر ولاحتواء الأزمة ولترشيد مسارها من الخطر وتفاقمه. مع ذلك، فإن هذه الفرص «المواتية» لا يدركها ولا يستبصرها ولا يستجيب لها إلا العقلاء والحكماء من القادة.. وكل إنسان عاقل وكل مجتمع عاقل. وهنا، فإن تلك الفرص المواتية التي لاحت وبإلحاح في حمأة أزمة الخليج وفي كل مراحلها لم تلق الاستجابة الإنسانية والحضارية من النظام المريض في القيادة العراقية.

ولقد كان من منطق العقل واستنارة الوجدان وكفاءة الفعل والعمل أن تأتي المبادأة المصرية بدعوة الرئيس محمد حسني مبارك لأعضاء الأسرة العربي في مؤتمر القاهرة لاحتواء تلك الأزمة في منشئها داخل البيت العربي.. وهو موقف صدق وحق.. يعتملهما ضمير مصر الحضاري في تعاملها مع الأحداث الجسام والمهام العظام. وكانت الاستجابة من الرئيس المصري هي، بكل المعايير والتقديرات، موقف «مصر الحضارة والإنسان»!! موقف البصيرة العاقلة في الوقت المناسب من تواتر وتسارع وتفاقم الأحداث المنذرة بتصدع البناء العربي وبالنيل من تماسكه، ومن كفاءته في التفكير والتدبير وفي الانفعال والفعل.

وتعاظمت الفرصة مع الموقف المصري، في استمراريته وفي تفاعله مع القيادات العربية العاقلة، في كل مراحل تطور الأزمة، حتى لقد بلغ عدد الرسائل والنداءات التي وجهها الرئيس محمد حسني مبارك اثنتين وثلاثين رسالة ونداءً، كي يستجيب النظام العراقي لصوت العقل والقلب لتدارك الأزمة التي تفاقمت مع متغير الزمن الذي استغرقته الأزمة حتى تحرير الكويت. وتلك هي الفرص الضائعة في حمأة الأزمة. ويبدو أن حالة العماء وما تستدعيه من حماقة لم تمكن قيادة النظام العراقي من إدراك تلك الفرص المواتية؛ وهو ما كان متوقعاً من تلك النماذج من «سيكوباثولوجيا القائد». ولقد كتبنا حينئذ فيما هو متوقع من ضياع تلك الفرص إبان الأزمة[٤٩].

«والآن.. وبعد مرور فترة غير قليلة من الوقت لأحداث أغسطس الأسود، نجد أن ظاهرة «رد الفعل المُرجأ» تعرقل الأسرة العربية في حركتها لاحتواء مأساة العدوان العراقي.. قبل تفاقم الموقف وتكاثر التداعيات واستفحال الفاقد. ويبدو وكما هو متوقع من تفكير وسلوك النظام الحاكم في العراق ـ إن التراجع الآن قد يكون أمراً ليس بالسهل»!.

«لقد أرجأوا.. وتعدد الرجاء من الرئيس محمد حسني مبارك لاحتواء الموقف.. ورغم الرجاء فلا زال هناك الإرجاء للاستجابة للاحتواء الحضاري والإنساني لمأساة العدوان العراقي.. وأغلب الظن أن هذه الاستجابة هي بسبيلها أن تكون استجابة (جهيضة)».

إن أزمة الخليج لتنطوي هكذا على نماذج من المفارقات والمتقابلات: نماذج من الفرص المواتية في مقابل نماذج من الفرص الضائعة.. ومن هنا، يمكننا أن نستبين في أزمة الخليج نموذجين متناقضين من المواقف: نموذج «غني بالمعاني» (meaningfulness) في مقابل نموذج «اللامعنى» (meaninglessness)؛ وهو ما يمكننا أن نقرر معه أن أزمة الخليج تزخر بمواقف من «تنافر المعاني»، أي تعاظم المعاني وتناميها من ناحية وافتقادها وغيابها من ناحية أخرى. وفيما يلي نتناول بعضاً من هذه المعاني التي نمت وأجهضت في نفس الوقت مع كل مراحل تطور الأزمة(٥٠):

١ ـ معنى اللحظة السيكولوجية المواتية في مقابل رد الفعل المرجأ

لقد كان العدوان العراقي «الصادم» في منطقه وهدفه وأسلوبه، وفي تتابع أحداثه وفي تنافر أصدائه.. من الفجاءة والضراوة ما ينذر بخراب في البيت العربي.. هنا كان الموقف المصري في «منشأ» أو «بداية» ظهور onset الأعراض المرضية أو غير الصحية لظاهرة خطيرة.. أي في مرحلة يكون فيها من الأيسر وبخسارة أقل، علاج المرض، كما أنها مرحلة مبكرة يمكن عندها بالبحث والفحص التبصر بما يؤول إليه تطور هذه الظاهرة غير الصحية.. وبالمصطلحات العلمية فإن تناول هذه الظاهرة في مرحلتها المبكرة ليستند إلى نوع من «التشخيص التنبؤي» أو «تشخيص المآل» prognosis، وحيث يتمكن الخبراء والعقلاء من تقدير صورة من التوقعات لما قد يتمخض عن هذه الظاهرة من تطور وتعقد.. ثم وبناءاً على هذه الصورة المتوقعة يمكن تحديد ما يمكن عمله واتخاذه من إجراءات وعلاجات للوقاية من التردي في هذا المآل.. (وهذا ما يعبر عنه بالمفهوم prescribtion)..

ومن هنا، ومن موقع الالتزام والمسؤولية، كان «التدخل» المصري في «اللحظة السيكولوجية المواتية» Psychological moment لاحتواء صدمة العدوان العراقي في منبتها وقبل تعقد وتعدد إصاباتها لجسم المجتمع العربي وفي حاضره ومستقبله.

وفي مقابل الموقف المصري.. كان الموقف بالنقيض من جانب البعض، ثم ظلت له

استمراريته وخطورته.. ونعني بذلك موقف «رد الفعل المرجأ» delayed reaction، وحيث تأتي ردود الأفعال أو الاستجابات للمواقف والمثيرات بعد فوات وقتها الملائم لمواجهة الموقف وعلاجه.

فالمواقف الإنسانية الناضجة، للفرد والمجتمع، تتأتي من «الاستجابية» (responsiveness) للمثيرات التي يتعرض لها الفرد والمجتمع؛ فالاستجابات وبدائل الاستجابات في حالة من التجهيز والاستعداد للاختيار ولاتخاذ القرار إزاء تلك المثيرات أو المواقف.. أما الاستجابات المرجأة فهي استجابة في غير حينها.. بل ولا تكون ملائمة نتيجة لدخول متغيرات وحدوث تغيرات في الموقف تزيده تعقيداً.. وهنا تتدخل ظاهرتان تجهضان ـ وفقاً لقوانين علم النفس ـ الاستجابية البناءة للأزمة وهما: «انطفاء الاستجابة» و«كف الاستجابة».

٢ ـ معنى إزكاء الأفعال في مقابل ردود الأفعال

وليكشف التحليل للموقف العراقي «الصادم» ومن لف لفه، أنه قد قام على أساس من ردود الأفعال Reactions (وهو المستوى البسيط المحدود والضيق للاستجابة للمثيرات والمواقف)، ولم يقم على أساس من «إزكاء الأفعال» أو «الارتقاء بالأفعال» Proactions (وهو المستوى الإنساني الراقي من الاستجابات الذي يعتمد على العقل والبصيرة وعلى تقدير الواقع والمتوقع، وتوجيه الفكر والوجدان والعمل إلى غايات بناءة).

إننا نرى أقطاب الأيديولوجيات المتناقضة والمتصارعة في عالم اليوم يصلون بالفهم والتفاهم وبالوفاق والتوافق إلى قرارات بناءة للتقارب وإلى صيغ حضارية وإنسانية لحل الصراع ولخفض التوتر.. رغم ما كان هناك من بشاعة الأسوار والحروب الباردة.. ورغم ما كان من الفرق الشاسع بين معسكرين متنافرين.. قضايا لم يكن لأحد ليتصور أن تكون موضوعاً للحوار والنقاش.. ومشكلات قد تبدو بلا حلول. إنهم يجلسون ويتفاهمون ومن ثم يفهمون ويعملون.

وكم أرادت مصر وأشقاؤها العرب، وفي استمرارية لتلك الإرادة، تعقل الموقف واحتوائه، والارتقاء بكل ما حدث من مآس ومن دمار ومن وحشية.. ولكن ردود فعل الموقف العراقي، بما ينطوي عليه من اللامعنّى واللامعيارية، بدأت واستمرت في حالة من «العماء» و«الغباء» ـ أي من عماء الوجدان (عماء المشاعر والعواطف والدوافع) الذي يسيطر على العقل فيبدد قدرته على التعقل، فيحيل عمل العقل وظيفياً إلى حالة من «الغباء» والاضطراب.. ومن يسترجع أحداث أغسطس الأسود ليدرك من الوهلة الأولى وبدون اجتهاد أو تفسير تلك الصورة السوداء وتلك المواقف الطائشة من الخبل والجنون لردود أفعال الموقف العراقي ومن لف لفه.

٣ ـ معنى احترام الذات

إن أحداث أغسطس الأسود لهي فضيحة نكراء وجريمة بشعة في البيت العربي؛ فهي أحداث سطو وسلب ونهب واغتصاب.. أحداث قراصنة أو قطاع طرق.. وتلك هي الصورة التي أخذت تتكشف يوماً بعد يوم منذ بداية الاجتياح التتاري للكويت.

وكان الموقف المصري ابتداءً هو موقف أمة تحترم ذاتها.. فكانت الدعوة من العقل والقلب إلى «كلمة سواء» في الوقت الملائم وداخل الأسرة العربية وباجتماع أعضائها.. دعوة إلى الحوار وإلى اتخاذ القرار الذي يحمي الأمة العربية من نزيف تفاقم الأحداث والمواقف وتفاعلاتها وافتعالاتها.. وفي الإطار الذي يصون الكرامة وفي المرحلة التي يمكن عندها تدارك الأزمة ورأب الصدع.

٤ ـ معنى الدعم الذاتي والدعم من الآخرين

لقد اتخذ الموقف المصري ـ العربي في الأساس توجهاً قوامه توفير السند أو الدعم المستمد من الداخل أي من داخل الأسرة العربية.. للتوصل إلى صيغة عاقلة قائمة عى أساس من الدعم الذاتي self-support للتعامل مع الموقف برمته وقبل تداعياته التي لا تحمد عقباها. ولكن ومع تصعيب وتصعيد الموقف إلى الحد الذي يزيد عن الاحتمال، كان من الطبيعي أن يكون هناك أيضا السند أو الدعم من الآخرين. فمأساة العدوان العراقي هي مأساة للمجتمع العربي، بقدر ما هي أيضاً مأساة كل المجتمع الإنساني.. فأحداث الكويت هي قضية الإنسانية. ولم يأت الدعم أو السند من الآخرين صدفة.. فهو موقف إنساني من المجتمع العالمي بما فيه من رموز ودلالات.. كما أنه موقف فيه الوفاء والتقدير لدولة الكويت في تفاعلها وتعاملها مع المجتمع الإنساني.

وهنا نقرر وفق بعض الاتجاهات العلمية المعاصرة في البحث في الصحة النفسية للفرد والمجتمع ـ ونعني بذلك البحث في تحقيق الذات باعتباره التوجه الأساسي للشخصية السوية وللسلوك الفعال، ومن أركانه ما يعرف بـ «توجه الدعم» Suport Orientation. (وهنا نعتمد على بعض الأدلة المشتقة في هذا الصدد من اختبار نفسي عن تحقيق الذات قمنا بتقنينه في عام ١٩٨٦[٥١]).

«فالأشخاص المحققون لذواتهم يتميزون بأن توجه الدعم لديهم يميل إلى أن يكون وسطاً بين الدعم من الداخل والدعم من الآخرين.. ويمكن وصف توجههم في الحياة، من ناحية بالاستقلالية والدعم الذاتي، ومن ناحية أخرى، فهم لهم توجههم نحو الآخرين من حيث إنهم ينبغي أن يكونوا على درجة من التقبل للاستحسان والتقدير من الآخرين، في حين يبقى التوجيه من الداخل بالضرورة مصدر أفعالهم. بهذا المعنى يتسم توجه الأشخاص المحققين لذواتهم بالحرية، ولكن حريتهم لا يحصلون عليها بالتمرد أو العدوان على الآخرين.

فالتوجيه من الداخل يتسامى لديهم من خلال الاستيعاب الناقد لمبادىء الحياة الفعالة».

وإن هذا لهو التوجه الصحي للموقف المصري ـ العربي والعالمي في التعامل مع مأساة العدوان العراقي.. فهو موقف قوامه الدعم الذاتي من الأسرة العربية في تفاعلها الحر مع أسرة المجتمع العالمي.

٥ ـ معنى التنبؤية

لقد كان من أخطر جوانب «الفاقد النفسي» للإنسان العربي إزاء صدمة العدوان العراقي.. هو النيل من قدرتنا على «التنبؤية» أو «إمكانية التنبؤ» Predictability كما أظهرته أحداث الكويت.. فالكل مشدوه في حالة من الذهول لما وقع من أحداث ومواقف ذلك العدوان ومن تفاعلاته وافتعالاته.

أحداث مروعة بلا مقدمات يمكن أن نتوقع منها نتائج.. مواقف محزنة ومخزية بلا أسباب يمكن أن نستنتج منها مترتبات.. غموض وظلام لا نستطيع معه أن نستبين الحلم من الحقيقة.. فوضى وارتباك في كفاءة العقل.. في الإدراك والتفكير والوعي.. فوضى وارتباك في الوجدان.. في المشاعر والعواطف والانفعالات الدوافع.. وفوضى وارتباك في الأداء والسلوك والعمل.

إن المجتمع الآخذ في التقدم، شأن الإنسان المتحضر والشخصية الناضجة، مجتمع قادر على «التنبؤ».. أي أن تكون له حساباته وتقديراته للتغيرات والمتغيرات، ومن ثم تكون له «توقعات» حقيقية يمكنه بناء عليها أن يضع سياساته واستراتيجياته وخططه.. ولقد أدى النظام العراقي «الصادم» إلى جعل قدرتنا على التنبؤية في حالة من الارتباك والفوضى! «فاقد» وما أخطره في طاقاتنا النفسية التي صار يستثمرها هذا النظام في خدمة ذلك الدمار وما وراءه من نزعات المرض واختلال الشخصية.. ولا يستثمرها في خدمة التقدم وفي اتجاه البناء الحضاري والإنساني.

وفي هذا المعنى كانت الحكمة والبصيرة من مبادرات الرئيس محمد حسني مبارك وفي استمرارية تلك المبادرات.. إدراكاً للواقع ومترتباته، وتنبؤاً بالاحتمالات والتوقعات التي قد تفوق كل التقديرات وتتجاوز كل العواقب.

٦ ـ معنى القِيَميَّة

وَلْيُتَأَكَدْ من الأحداث البشعة اللاإنسانية والمعادية للقيم الإنسانية لأزمة الخليج وما تنطوي عليه من رموز ودلالات.. أنها مأساة إنسانية أخلاقية في المحل الأول، وتثير قضية الحاجة إلى نظام قيمي ذي توجه عملي يقوم على حسن توظيف ثقافتنا العربية والإسلامية،

وهي ثقافة غنية بالمفاهيم والأحكام والمبادىء الأخلاقية التي تتجسد في أعمال وأفعال ومواقف «إنسانية».. هو نظام من القيم المعاشة التي بها ينتظم العقل ويترشد التفكير ويستنير الوجدان مشاعر وعواطف ودوافع إنسانية بناءة، وتنضبط الأعمال والأفعال في وجهتها القيمية.. ثم هو نظام قيمي يقوم على الاتساق بين القيم والأحكام الخلقية كتفكير وكعمل للعقل، وكوجدان وعواطف ثم كسلوك ومواقف عملية.. اتساق القيم الأخلاقية فكراً ووجداناً وسلوكاً.

ولعلنا لا نجانب الصواب إذا قررنا أننا نعيش حالة من التنافر أو عدم الاتساق في نظامنا القيمي.. التنافر أو التناقض بين المفاهيم وبين المشاعر والعواطف.. وبينها وبين الأفعال والأعمال.. ومن المحكات الأساسية التي يقررها المنظرون والباحثون في سيكولوجية الأخلاق هو محك أن نضع أنفسنا موضع الآخرين في أفكارنا واتجاهاتنا ونزعاتناومشاعرنا وسلوكنا نحوهم.. هنا الموقف الأخلاقي مع الذات في تعاملها الصادق مع نفسها ومع الآخرين.. وفي هذا الموقف تتأتى «إنسانية» الإنسان في طبيعتها الحقيقية.. في فطرة الإنسان التي هي بالضرورة خير لا شر.. ذكاء لا غباء.. وبصيرة لا عماء.

إن ما نحن بحاجة إليه هو ذلك النظام القيمي كما نعيشه بتعقلنا وتفكيرنا، وكما يوجه حياتنا العاطفية وداً وتواداً ورحمة وتراحماً، وكما ينشط فعالياتنا بدوافع إنسانية إيجابية، ثم وكم يترجم ذلك النظام في أعمال وأفعال وتصرفات في مواقف العلاقة بين الفرد ونفسه وبين الفرد والآخرين، وداخل الجماعة الاجتماعية وبين الجماعات الاجتماعية.

وعلى هذا النحو تصبح «القِيَمية» valuing ـ أي أن النظام القيمي المعاش في اتساق فكراً ووجداناً وسلوكاً ـ هي التوجه الصحي لحياة الفرد وحياة الجماعة، بقدر ما هي معيار أساسي لسلامة الفرد والمجتمع، وضمان أكيد لصحة المجتمع في تماسكه وحيويته، وفي عقلانيته واستنارته وفعاليته.

.. إن الموقف المصري من أزمة العدوان العراقي «الصادم» لهو نموذج قيمي يحتذى في العمل والتعامل الحضاري مع المواقف الحرجة من تاريخ الشعوب.. فهو موقف ذو معنى داخل الأسرة العربية وبتقدير المجتمع الإنساني.. وهو موقف يبرز مدى حاجتنا وأكثر من أي وقت مضى، إلى أن نثري وجودنا العربي بالمعاني العظام التي يزخر بها تراثنا.. إننا لسنا بحاجة إلى «البحث عن المعنى».. فالمعاني الحضارية والإنسانية هي من طبيعة هوية الذات العربية ومن صميم بنائها.. أما ما نحن بحاجة إليه فهو حسن استثمار وتوظيف هذه المعاني الكامنة في ثقافتنا ـ فكراً عاقلاً، ووجداناً مستنيراً، وعملاً منتجاً، وأداءً مبدعاً.

عودة الفرصة (تجاوز الأزمة)

أزمة الخليج في كل مراحل تطورها وفي كل ما خلفته من آثار ونتائج لهي «الخطر الحقيقي» فيما أوجدته من دمار ومآس وشروخ في البيت العربي وفي الإنسان العربي.. وهي «التوقع للخطر» فيما تتضمنه من معاني ورموز الإحساس بالتهديد وبانعدام الأمان، أي توقع تكرار الخطر/الصدمة.

وإزاء كل خبرات وتداعيات ومترتبات أزمة الخليج، واستلهاماً للدروس المستفادة من تلك الأزمة ومما أوجدته تلك النازلة من تجارب واختبارات ومعان، فإن مرحلة ما بعد الأزمة، وهي فترة حرجة من تاريخ عالمنا العربي، لهي «الفرصة العائدة» أو «عودة الفرصة» لتجاوز تلك الأزمة ـ مواجهة لمترتباتها، ومعالجة لآثارها، واستعادة للتوازن، وإعادة للبناء، وتوجهاً إلى التنمية.

ويعني مفهوم «التجاوز» (transcendence) استيعاب المحنة بكل خبراتها ونتائجها، والتسامي فوق مآسيها، وتحويل المعاناة إلى إرادة للوجود وللعمل والبناء بوعي أكثر وبطاقات أكبر وبمعان أعظم؛ ومن ثم تكون الأزمة عند هذه المرحلة «فرصة للنمو».

يقرر «فرانكل» من واقع تحليلاته لخبرات الحرب العالمية الثانية[٥٢]: «لقد كانت هناك على الدوام اختيارات في تلك الظروف المروعة من الضغط النفسي والمادي. ففي كل وقت تتأتى الفرصة لاتخاذ قرار ـ وهو القرار الذي يحدد ما إذا كنت تنوي أن تخضع أو لا تخضع لتلك القوى التي تهدد بأن تسلبك من ذات نفسك.. من حريتك الداخلية؟.. ولقد قال «دوستويفسكي» ذات مرة: «يوجد شيء واحد فقط يروعني وهو ألا أكون جديراً بآلامي». هذه كلمات راودت عقلي مراراً وألحت عليه بعد أن أصبحت مدركاً لأولئك الشهداء الذين يفصح عذابهم وموتهم عن الحقيقة بأن الحرية الداخلية لا يمكن فقدها. ولقد كانوا كذلك جديرين بآلامهم؛ فالطريقة التي تحملوا بها آلامهم تمثل إنجازاً داخلياً أصيلاً. تلك هي الحرية الروحية ـ وهي التي لا يمكن سلبها من الإنسان ـ وهي التي تجعل الحياة ذات معنى وذات هدف».

«إن الطريقة التي يتقبل بها الإنسان قدره ويتقبل بها كل ما يحمله من معاناة، والطريقة التي يواجه بها محنه.. كل هذا يهيىء له فرصة عظيمة حتى في أحلك الظروف ـ لكي يضيف إلى حياته معنى أعمق، حيث يحتفظ بحريته الداخلية الكاملة ويتوصل إلى تلك القيم المعنوية التي أتاحتها الآلام؛ وفي ذلك الدليل الكافي على أن القوة الداخلية للإنسان قد تعلوا به فوق قدره في هذا العالم الخارجي.. فحيث يواجه الإنسان أمراً مقدراً لا بد من وقوعه، تكون هناك فرصة تحقيق إنجاز عظيم من خلال المعاناة».

لقد كان الموقف المصري من أزمة الخليج «فرصة عظيمة» في رؤية المستقبل العربي بدلالة

الحاضر، فلقد عبرت مصر عن حقيقة ذاتها الحضارية في كل مواقفها من أزمة الخليج.. إدراكاً لهذه الأزمة قبل وقوعها.. وعملاً على تداركها قبل تفجرها.. وبدءاً ومبادأة بمؤتمر القاهرة.. ثم في كل مواقف وأحداث تتابعات تلك الأزمة ومواجهة لكل ما أفرزته من تداعيات.

وتميز الموقف المصري، منذ اللحظة الأولى لبوادر تلك الأزمة، بقدرته على تقدير الواقع والمتوقع من تلك الأزمة، كما تعاظم الموقف المصري باقتداره على التفاعل مع تلك الأزمة بالاستجابات الناضجة والبناءة.. وتبصراً بالنواتج والمترتبات.

رؤية للحاضر بدلالة المستقبل

لقد أوقعت أحداث العدوان العراقي على الكويت، أو إن شئنا زلزال الخليج، العالم العربي خاصة في حالة من الارتباك واختلال التوازن.. وتلك حالة «صدمة» للإنسان العربي وللوجود العربي.. ورغم ما شاب هذا العدوان المشؤوم من اللامعنى Meaninglessness واللامعيارية Normlessness، إلا أن الوجود والوعي الحضاريين للإنسان العربي وللعالم العربي ليفرض ومن كل بد أن تكون لنا حساباتنا وتقديراتنا وتقييماتنا للواقع والمتوقع من الظاهرات والأحداث، وحتى يكون لنا حضور ووعي ومسؤولية في توجيه المستقبل أو إن شئنا التأثير الإيجابي في مسار المستقبل.

وفي هذا تتأكد أهمية التعامل مع مرحلة ما بعد أزمة الخليج على أساس من **التوجه التوقعي في بناء استراتيجية عربية لتجاوز تلك الأزمة.**

يحدد «تقرير نادي روما الدولي» (١٩٧٩) فيما يتعلق بالمعضلة العالمية وتحديات المستقبل[٥٣]، التوجه التوقعي بأنه «القدرة على مواجهة المواقف الجديدة»، وهي مواقف لم يسبق لها في الغالب مثيل.

والتوقع قدرة على التعامل مع المستقبل، وعلى رؤية الأحداث قبل وقوعها، وعلى تقويم ما يترتب على المدى المتوسط أو المدى الطويل ـ على ما يبرم من قرارات أو يتخذ من إجراءات؛ والتوقع ليس مقصوراً على تشجيع الاتجاهات الطيبة وإزاحة غيرها مما ينذر بالهلاك، وإنما هو فوق هذا وذاك عملية استنباط لبدائل جديدة لما لم يكن له بدائل من قبل. والتوقع يقتصد في القيام بعمليات غالية مكلفة، ويقتصد في الزمن الذي يضيع في المرور في الخبرة. ثم إن التوقع يساعد على تجنب الدورس الغالية المكلفة والمسببة للمضرة.

«وهناك فكرة يمكن أن توصف بأنها قدرية إلى حد ما، وهي أن المجتمع لا يتعلم إلا من تجاربه يوماً بعد يوم، وهذا الذي يتعلمه المجتمع قليل، فما عدد الدروس التي يجب على التاريخ أن يقدمها قبل أن يتعلم الناس كيف يعيشون في سلام؟ وما عدد الحروب التي يجب

أن يكابدها العالم حتى يتعلم كيف يتجنب حروباً جديدة؟ ففي الظروف المرتبطة بتلك الدروس نجد أن أولئك الذين يجب أن يفزعوا هم أولئك الذين لا يحركهم التدهور التدريجي. ولذلك فعندما تقع الصدمة، وتتحرك الأمور تحرك الرعد، فإن الناس يقفون لكي يروا البرق الذي يكون قد انطلق فعلاً ليدمر»(٥٤).

«وعلى ذلك فإن **الاتجاه التوقعي يتجاوز عملية رؤية الأحداث الخارجية قبل وقوعها، فهو يتضمن فوق هذا مسؤوليتنا في توجيه الأحداث المستقبلة والتأثير فيها. فالتوقع أبعد كثيراً من مجرد قياس الاحتمالات، فهو أساساً خَلْق للمستقبل الممكن والمنشود** .وهو فوق هذا وذاك اختيار الخطط وتصميم خطوات لتحقيقها»(٥٥).

ولقد تأكد من تجارب الشعوب المختلفة، أنه في الفترات التاريخية «الحرجة»، وحيث يواجه المجتمع صعوبات ومشكلات وتحديات، تبرز أهمية بناء استراتيجيات لمواجهة ضغوط تلك الفترات ولحشد جميع الطاقات العاملة والكامنة في الوطن لتحقيق الأهداف الكبرى للمجتمع أو في قطاعات أساسية منه. وعلى هذا الأساس، وارتباطاً بحالة اضطراب التوازن في الفرد والمجتمع نتيجة للأزمات في تلك الفترات الحرجة وما ينتج عنها من ارتباك أو خلل في المجتمع من حيث البناء والوظيفة والعمليات، يكون العمل الوطني في هذه الفترات «الحرجة» هو بالضرورة عملاً استراتيجياً يحدد إطار العمل ونظام العمل وأهدافه ومبادئه وجماعات الهدف له ومجالات العمل وطرقه وأساليبه.

وهنا ينبغي أن نحدد ابتداءً مراحل أزمة الخليج حتى يستطيع العمل الاستراتيجي لتجاوز تلك الأزمة أن يستوعب تلك المراحل ويتجاوزها إلى استعادة التوازن وإعادة البناء. وهنا نقرر ـ وفق معطيات علمية مستمدة من «سيكولوجية الأزمات» Crisis Psychology و«إدارة الأزمات» Crisis Management و«التدخل في الأزمات» ـ Crisis Intervention أن أزمة الخليج يمكن تحديدها في أربع مراحل أساسية هي(٥٦):

١ ـ **مرحلة أثر الصدمة:** فيما يتعلق بتلك الخبرة الصدمية لعدوان النظام العراقي على الكويت وما ترتب على ذلك من معاناة وارتباك وردود أفعال متباينة ومتناقضة إزاء أحداث ومآسي هذا العدوان.

٢ ـ **مرحلة صدمة الأثر:** وهي الصدمة المتعلقة بـ «الأثر» الناجم عن ذلك العدوان المشؤوم، وبحجم ومدى الفاقد الذي تخلف عن هذه الفترة منذ الثاني من أغسطس سواء الفاقد المادي أو الفاقد النفسي ـ وهو الأخطر ـ من قلق واكتئاب ومن فقدان الثقة ومن نقص الإحساس بالأمن والاستقرار، ومن تبديد طاقات ومصادر الإنسان العربي.

٣ ـ **مرحلة استعادة التوازن:** وهي مرحلة ما بعد حرب تحرير الكويت امتصاصاً للصدمة،

وتجاوزاً ـ لا تجاهلاً ـ للأزمة ونواتجها.

٤ ـ **مرحلة إعادة البناء والتنمية:** وهي مرحلة استثمار ما قد يقع من محن للشعوب لتعويض الفاقد وإعادة البناء، ووعياً بالتجارب والدروس، وانطلاقاً بالطاقات المتجددة والمجددة لفعاليات المجتمعات.

وتأسيساً على ما سبق، واعتباراً لظروف ومتغيرات تلك الفترة الحرجة من تاريخ وطننا العربي، تتحدد **طبيعة استراتيجية تجاوز أزمة الخليج** في أنها[٥٧]:

ـ استراتيجية وقائية / علاجية.

ـ واستراتيجية بنائية / تنموية.

فمن حيث إنها **استراتيجية وقائية / علاجية**، ترتكز الاستراتيجية في بعض مراحل وجوانب عملها إلى الوقاية للإنسان العربي من الآثار والشروخ النفسية التي أوجدها بلاء عدوان النظام العراقى على الكويت، وما ترتب على ذلك من تطورات آلت إلى حرب تحرير الكويت، ومعالجة تلك الآثار استيعاباً للصدمة وتجاوزاً للمحنة.

ومن حيث إنها **استراتيجية بنائية/ تنموية**، ترتكز الاستراتيجية في الأساس إلى إعادة البناء وإلى التنمية للذات وللوطن، تواصلاً منطقياً للنمو الطبيعي للإنسان العربي وللتقدم المأمول للمجتمع العربي.

وبناء على ذلك تتحدد الأهداف الرئيسية لاستراتيجية تجاوز أزمة الخليج في فئتين متكاملتين:

ـ **أهداف قريبة المدى:** وهي أهداف مرحلية، تختص بمرحلة استيعاب الصدمة وتجاوز المحنة، عملاً بالتوجه الوقائي والعلاجي للاستراتيجية.

ـ **أهداف ممتدة بعيدة المدى:** وهي أهداف تتجه إلى إعادة البناء والتنمية للذات والوطن عملاً بالتوجه البنائي والتنموي للاستراتيجية.

ومع هذا التحديد يتأكد أن أهداف الاستراتيجية تتكامل فيما بينها وقد تسير متزامنة، رغم أولويات العمل الاستراتيجي الموجه إلى استيعاب الصدمة وتجاوز الأزمة.

الاستيعاب الحضاري للأزمة

وبقدر ما كانت أزمة الخليج «صدمة» مروعة للإنسان العربي، بقدر ما تنشط قدرتنا وتتعاظم كفاءتنا الحضارية والإنسانية في استيعاب الصدمة وتجاوز الأزمة إلى المواجهة البناءة لتحديات تلك المرحلة من تاريخ أمتنا العربية .**وتقوم عملية الاستيعاب الحضاري لأزمة**

الخليج على ركنين أساسيين: تعقل الأزمة، والفعالية في مواجهة الأزمة:

١ ـ **تعقل الأزمة:** وهو ركن هام ومنطلق أساسي لاستيعاب أزمة الخليج، وعلينا العمل على تحقيقه وفقاً للتوجهات العملية التالية:

أ ـ **إدراك أن أزمة الخليج موقف غير عادي استدعى بدوره مواقف غير عادية**، وهنا تقرر بعض نظريات وبحوث علم النفس التي نبعت من تجارب ومحن الحرب العالمية الثانية (فرانكل في كتابه: «الإنسان يبحث عن المعاني»، ترجمة المؤلف): «**أن رد الفعل غير الطبيعي إزاء موقف غير طبيعي هو رد فعل طبيعي**» .وإدراكنا لذلك ينطوي على استيعاب تلك الحالة القاسية من كثرة اللوم الموجه إلى الذات أو إلى الآخرين وتجاوزها إلى إعادة البناء.

ب ـ **تقبل المعاناة وتحمل الضغوط**، وفي هذا يقول «جوردون أولبورت» في تقديمه لكتاب فرانكل[٥٨]: «لكي تعيش عليك أن تعاني، ولكي تبقى عليك أن تجد معنى للمعاناة. وإذا كان هناك هدف في الحياة، فإنه يوجد بالتالي هدف في المعاناة»..

فحينما يجد الإنسان أن مصيره في بعض الظروف القاسية هو المعاناة، فإن عليه أن يتقبل آلامه ومعاناته كما لو أنها مهمة مفروضة عليه ـ وهي مهمة فريدة ومتميزة. وعليه أن يعترف بالحقيقة بأنه حتى في المعاناة فهو فريد في هذا الكون. ولا يستطيع أحد أن يخلصه من معاناته أو يعاني بدلا منه. ففرصته الفريدة تكمن في الطريقة التي يتحمل بها أعباءه ومتاعبه وكذلك في طريقة المواجهة لتلك الضغوط[٥٩].

جـ ـ **الوضوح المعرفي للأزمة**، من حيث إعادة التنظيم المعرفي لكل أبعادها ومتغيراتها وتفاعلاتها.

د ـ **الاتساق المعرفي في الوعي بالأزمة** من حيث إزالة المتناقضات والمفارقات والافتعالات التي شابت الأزمة، وتصحيح بعض المفاهيم مثل مفهوم توزيع الثروات ومفهوم الربط بين القضية الفلسطينية واحتلال الكويت، ومفهوم الدفاع عن الديمقراطية في الكويت، وكذلك بعض المفاهيم التي حاولت استثمار الشعور الديني.

هـ ـ **تحديد المشكلة/الأزمة** داخل إطار حدودها الحقيقية، دون ما إقلال أو مبالغة أو تهويل.

و ـ **تقييم الأزمة** في إطار حدودها مع تركيز بؤرة الوعي على «منبت» (onset) المشكلة أو «مصدر العلة» (etiology) لكل ظاهرة أزمة الخليج.

يقرر فرانكل[٦٠]: «أن كل ما تعرضنا له لا يزال مصدر قوة لنا في المستقبل. وفي ذلك يستشهد بقول «نيتشه»: «إن ما لا يقتلني، يجعلني أقوى»، كما يستشهد بقول الشاعر: «إن

ما خبرته بنفسك، لاتستطيع قوة على ظهر الأرض أن تأخذه منك». وليست خبراتنا فحسب، بل إن كل ما قمنا به من أعمال وكل ما مر في ذهننا من أفكار عظيمة، وكل ما عشناه من آلام ومعاناة ـ كل هذا لا يذهب أدراج الرياح، رغم أنه وقع في الماضي، بل نستعيده ونقيّمه. وفي هذا تحقيق لإرادة الوجود».

ز ـ **تجاوز المتناقضات**[٦١] فقد انطوت أزمة الخليج على مواقف واتجاهات متناقضة تفاعلت مع بعضها في تعصيب وتصعيد الأزمة، ومن ثم الصراع بين مواقف «مع» أو «ضد» عناصر ومتغيرات تلك الأزمة (الكويت في مقابل العراق، والعراق في مقابل الكويت، والحرب في مقابل السلام.. الخ). وقد يكون في تحديد وعزل مظاهر أو أعراض تلك الأزمة حلاً لذلك الصراع بين المتناقضات وذلك في فئتين من المظاهر أو الأعراض:

١ ـ المظاهر أو الأعراض الأولية أو الأصلية للأزمة (Primary Symptoms)، وتتمثل تحديداً في «منبت» أو «مصدر» تلك الأزمة وهو عدوان النظام العراقي على الكويت وفي أحداث ومآسي هذا العدوان حتى اللحظة الأخيرة لإنهاء ذلك الاحتلال على يد قوات التحالف.

٢ ـ المظاهر أو الأعراض الثانوية (Secondary Symptoms) التي تولدت كمترتبات أو نواتج منعكسة عن هذه المظاهر أو الأعراض الأولية أو الأصلية. ويتمثل ذلك تحديداً في وصول الأزمة إلى المرحلة التي لا مناص فيها من الاستعداد للحرب ومن تكوين قوات التحالف ثم وفي نهاية المطاف تحرير الكويت بالحرب ضد قوات النظام العراقي وما ترتب على ذلك من نواتج الحرب من دمار وإهدار للطاقات.

إن تعقل الأزمة وفقاً لتلك التوجهات العملية ليوفر ضمانات حقيقية لحماية الإنسان العربي من ردود الأفعال القائمة على الغضب والعنف وغير ذلك من التداعيات الانفعالية المرتبطة بضغوط تلك الأزمة.

٢ ـ **الفعالية في مقابل الانفعالية في مواجهة الأزمة:** وتستلزم فعالية استيعاب أزمة الخليج المواجهة العملية لمترتبات تلك الأزمة من حيث إعادة البناء للإنسان العربي وللمجتمعات العربية بعد تلك الأزمة ومتلازماتها الانفعالية، وذلك وفقاً لعدد من التوجهات:

أ ـ امتصاص أزمة الخليج ومتلازماتها الانفعالية، وذلك من خلال التفكير والتدبير في عمليات العمل والبناء.

ب ـ ضبط النفس إزاء آثار الصدمة ونواتجها.

جـ ـ حماية الفكر العربي من المزايدات ومن مواقف اللامعنى واللامعيارية في تقييم الأحداث والظاهرات وفي تقدير الواقع والمتوقع.

د ـ البحث عن الجوانب الإيجابية في الأزمة إبرازاً للمواقف الحضارية والإنسانية فيها وانتصاراً لقيم الحق والعدل.

هـ ـ استثمار هذه الجوانب الإيجابية في التعامل مع القضايا والمشكلات العربية الملحة، وفي مقدمتها القضية الفلسطينية.

و ـ حماية طاقات الإنسان العربي من الاستنزاف الانفعالي في الشقاق والعداوات ومن تبديد تلك الطاقات في مواقف ثانوية أو قضايا موهومة.

ز ـ البحث عن المسارات الملائمة لحسن توظيف واستثمار طاقات الإنسان العربي، مواجهة لتحديات العصر، وتحقيقاً للذات العربية.

الوعي بذاتنا الحضارية

إن مرحلة ما بعد أزمة الخليج لهي فترة حرجة في تاريخ المجتمع العربي بقدر ما هي مرحلة استعادة التوازن بعد تأثير الصدمة.

لقد كانت صدمة العدوان العراقي على الكويت ظاهرة غير صحية ومأساة تهدد بتصدع في البناء العربي؛ فلقد انطوت تلك الظاهرة على تبديد للمصادر والطاقات الكامنة في الإنسان العربي وفي الوجود العربي، وعلى «الاستنزاف النفسي» لإمكانات الإنسان العربي ولفعالياته. ثم إن تلك الظاهرة قد لازمها نوع من «التلوث النفسي» في المناخ العربي ـ تلوث بروح الشك واللايقين والإحساس بالتهديد وبعدم الأمان وبالخطر وبالقلق، وكذلك بانهيار الثقة في بعض جوانب العلاقات العربية، وبالإحساس باللامعنى وباللامعيارية في كل أحداث العدوان الصدامي على الكويت ومواقفه من الوهم والإيهام ومن الصلف الكاذب ومن ردود أفعال تلك المواقف على الساحة العربية.

وها نحن الآن مطالبون بوقفة حضارية جادة مع أنفسنا .**فإذا كانت الحرب في الخليج قد حققت غايتها من «تحرير الكويت» ــ حقاً وعدلاً.. فإننا الآن مطالبون بتحرير الإنسان العربي من الرواسب والعلل والمتلازمات النفسية التي صاحبت تلك الأزمة**، حتى لا تتراكم تلك الرواسب وتتصاعد وتتدعم في شكل حواجز نفسية داخل الإنسان وبين الإنسان والإنسان، وداخل المجتمع وبين المجتمعات، شأن كل الشعوب بعد فترات الحروب والأزمات.. لمعالجة آثار تلك الفترات الحرجة من تاريخها.

هذه المواقف الحضارية المأمولة والمنشودة إزاء متراكمات ومتلازمات الأزمة وما بعد الأزمة لتتطلب منا ابتداءاً الوعي، أو حتى استعادة الوعي، بذاتنا الحضارية. ولهذا الوعي عملياته الرئيسية منها:

- **بناء الثقة الأساسية**، أو حتى إن شئنا إعادة البناء للثقة الأساسية التي تقوم عليها كل أشكال العلاقات الناضجة مع الذات ومع الآخرين داخل المجتمع وبين المجتمعات.
وتلك هي الثقة اللازمة لكل إحساس بالأمان ولكل استقرار.. واللازمة بدورها لخلق

«المناخ النفسي» الصحي الذي ينطلق فيه العقل والوجدان والعمل في تحرر من أسر الخوف والقلق والإثم والعداوة.

- **تعزيز الثقة في ذاتنا العربية** في تعاملها البناء من داخلها أي مع ذاتها، ومن خارجها أي مع غيرها من المجتمعات الأخرى في كل العالم.
- **إدراك الذات،** وتلك عملية أساسية لبناء الثقة.. فالثقة تتأتى وتتقوى من الإدراك الوعي للإمكانات والطاقات وللقوى والمصادر الكامنة والعاملة في الإنسان العربي وفي الوجود العربي.
- **تقدير الذات،** وتلك عملية أساسية لتعزيز الثقة في الذات وقوامها الاعتزاز بتراث العرب والإسلام، وبفضل الحضارة العربية الإسلامية على الحضارة العالمية؛ كما أنها عملية قوامها البصيرة بإمكانات ومصادر الإنسان العربي والوجود العربي، وباعتبار تلك الإمكانات والمصادر حرصاً عليها ورعاية لها، وعملاً على حسن استثمارها وتوجيهها لغايات البناء والتقدم.
- **احترام الذات،** وهو الحرص على تقديم الذات للآخرين كي يدركونها ويقدرونها في نسقها الحضاري والإنساني؛ ويتضمن ذلك عملية جادة من السعي إلى الحفاظ على صورة الذات أمام الآخرين، وإلى تأكيد الذات اعتماداً على النفس وتمكناً من المهارات والكفاءات اللازمة لتحقيق هوية الذات بين الهويات الحضارية المختلفة للمجتمعات الإنسانية.

الوعي بالذات هو أيضاً الوعي بالآخر

إن الوعي بالآخر، أي الوعي بالعالم ومتغيراته وتحدياته، جانب متضمن في الوعي بالذات، فالوعي بالذات والوعي بالآخرين جانبان متكاملان، ولا يمكن الفصل بينهما، فهما وحدة الوعي - بناءً للوعي وإثراءً للوعي.

وهنا قضية تطرح نفسها وينبغي إثارتها وطرحها، ونعني بذلك **قضية الوعي بالمتغيرات العالمية بعامة وبعلاقتنا بالغرب بخاصة.**

لقد تردد، وليس بالقليل مما تردد، إبَّان أزمة الخليج وما بعد تلك الأزمة أن العدوان العراقي على الكويت ومترتباته وتداعياته هو مؤامرة على المجتمع العربي الإسلامي، وأن هناك من يتربصون بنا في الظلام ويحيكون المؤامرات والمخططات لتمزيقنا. وحيال تلك القضية ينبغي أن نضع في اعتبارنا أن الصراع بين الشعوب والمجتمعات والحضارات هو مكون رئيسي من مكونات العملية التاريخية للعلاقات الاجتماعية داخل المجتمعات وبين المجتمعات. وهنا قد

يكون عالمنا العربي والإسلامي «مستهدفاً» كمنطقة للتوتر والصراع. هذا في الوقت الذي تبرز فيه، وأكثر من أي حقبة تاريخية أخرى، حتمية التفاعل بين الشعوب والمجتمعات والحضارات وخاصة مع دول الشمال.

والواقع أن الخطورة في هذا الاتجاه المتعلق بإدراك العدو وماهية العدو وأساليبه تكمن في اختزال المواقف والقضايا والمشكلات الكبرى وفي تجريدها من الكثير من متغيراتها وتفاعلاتها حتى لتكاد تقتصر غالبا على إدراك أسباب المحن والأزمات في عوامل خارجية، بل وقد يصل الأمر في بعض الحالات إلى اتخاذ مواقف وردود أفعال تقوم على الافتعال لأعداء وعلى الانفعال بمواجهتهم.

إن هذا الاتجاه الذي ينزع إلى «الاختزالية» لتلك الفترات الحرجة ومواقفها الصعبة لينطوي على مخاطر منها:

١ ـ إعفاء الذات من إدراك قصورها أو أخطائها، وتعليق أسباب القصور والأخطاء على الآخرين.. وتلك حيلة دفاعية هروبية **للتبرير**، أي لتبرير الخلل أو الخطأ أو الإخفاق.

٢ ـ تشتت الانتباه وتبدد الطاقات في قضايا أو مواقف جزئية أو ثانوية أو حتى موهومة.

٣ ـ الالتهاء عن إدراك المسؤولية إزاء الذات والانحراف عن جادة السعي للبناء من الداخل.

ومن هنا، فإن قضية الوعي بمتغيرات العصر وبالعلاقة مع الغرب لتتطلب منا **إقرار علاقة حضارية مع الغرب** تستند إلى عدة مقومات هي:

١ ـ **الاعتماد على الذات:** وهو توجه يتحقق بالتمكن من المعلومات والخبرات والمهارات والكفاءات اللازمة لحسن إدارة وتوجيه الذات واللازمة بدورها للتفاعل الناضج مع الآخرين، وهو تفاعل قوامه بذلك التوجه في الحياة على أساس من الاستقلالية ومن الدعم الذاتي ومن المقدرة على التوجيه من الداخل، أي على ممارسة الحرية في تحديد المصير، وفي حسن الاختيار واتخاذ القرار.

وهذا المستوى الناضج من الاعتماد على الذات لا يعني رفض الاعتماد على الآخرين، وإنما على العكس ينقل العلاقات إلى مستوى أكثر نضوجاً من تبادلية الاعتمادية ومن التفاعلية في حرية ومسؤولية ووعي مع أسرة المجتمع العالمي.

٢ ـ **الحفاظ على الذات:** أي الحفاظ على الطابع القومي لهوية الذات أو على ما يعرف بالشخصية القومية، فتحقق ذاتها وتتمايز بها بين الهويات الحضارية للمجتمعات الأخرى، دون انغلاقية أو جمود، ودون أن تذوب في غيرها أو تتميع هويتها.

٣ ـ **إعادة تقييم بقايا الماضي ورواسب التاريخ** فيما يتعلق بخبرات العلاقات مع الغرب، بدروسها من ناحية، وتقييمها في ضوء متغيرات الحاضر وما يفرضه من تبادلية المصالح

والمنافع من ناحية أخرى.

ومن هنا لا بد من البحث عن صيغة جديدة واعية، تعززها توجهات الاعتماد على الذات والحفاظ على الذات، لإقرار علاقة حضارية مع الغرب واستثمار ما يتقنه من كفاءات العصر ومهاراته في تنمية الذات في إطار المصلحة القومية والقيم الحضارية والإنسانية. ويمكننا أن نستبين من «النموذج الياباني» في هذا الشأن الكثير من المعاني والدلالات والتوجهات لتلك الصيغة.

الاقتدار على الزمان

وذلك جانب تبدت خطورته في أزمة الخليج، من حيث بعض التوجهات التي لم تع العملية التاريخية وديناميةحركة الزمن والتفاعل معه.

والاقتدار على الزمان.. هو توجه بنائي للفرد والمجتمع، ويعني الكفاءة في التفاعل مع الزمان، تمكناً منه في الحاضر الممتد بجذوره إلى الماضي وبآفاقه على المستقبل.

ويُعد «الاقتدار على الزمان» Time Competence دالة لكفاءة الفرد وكفاءة المجتمع بقدر ما يعتبر الاقتدار على الزمان ركناً أساسياً من أركان تحقيق الذات للفرد أو المجتمع. فكل منهما لا يعيب زمانه، وإنما يعيش زمانه كاملاً، حيث يحسن توظيف طاقاته واستثمار إمكاناته ويكون فعالاً في تفاعل بناء مع مقتضيات الحياة. ويحدد الباحثون في الصحة النفسية للفرد والمجتمع ثلاث فئات غير فعالة للتوجه الزماني time Orientation ترتبط بنقص تحقيق الذات للفرد والمجتمع: التوجه المفرط نحو الماضي، والتوجه المفرط نحو المستقبل، والتوجه المفرط نحو الحاضر. فالأشخاص الذين يعيشون في المستقبل يتفاعلون مع أهداف متخيلة أو مختلقة تنمو لديهم بسبب عجزهم عن تقبل ذواتهم كما هي عليه في الحاضر ـ هنا والآن. وإذا غاب الوعي بالكينونة في الحاضر ـ «هنا والآن» ـ تنزع الأفراد والمجتمعات إلى اختلاق معنى للحياة وأهدافاً للحياة كي يبرروا وجودهم. وبهذا الاتجاه المثالي يكون الحاضر باعثاً على الإحباط، ويحقق الفرد عكس ما كان يقصده. وعلى هذا النحو أيضاً، فإن الأفراد الذين يعيشون في الماضي إنما يتوقفون عند اجترار ذكريات وآلام الماضي التي لم يستطيعوا بعد أن يستوعبوها ويهضموها، ومن ثم يلجأون إلى توجيه اللوم إلى الآخرين وإلى الحاضر كبديل للدعم الذاتي.

أما التوجه الزماني، الصحي الفعال، فهو يؤكد على أن مشكلات الفرد والمجتمع إذ توجد في الحاضر ـ هنا والآن ـ مع اعتبار منشؤها، فإن حلولها بالتالي ينبغي أن نجدها في الحاضر. وبعبارة أخرى، إن الزمن الوحيد الذي يمكن أن نعيش فيه هو الحاضر. إننا نستطيع أن نتذكر الماضي، وأن نتوقع المستقبل، ولكننا نعيش في الحاضر. وحينما نسترجع خبرة الماضي، فإننا لا نجعل الزمان يتحرك في الاتجاه العكسي. إننا في الواقع نحرك الماضي في

اتجاه الحاضر استلهاماً من الماضي وإثراءً به للحاضر، **فيكون الحاضر بذلك وجوداً حضارياً فعالاً، لا ممنوعاً عن ماضيه ولا مقطوعاً عن مستقبله.**

التعليم وبناء الإنسان العربي

إن تواصل أمتنا مع حركة الزمن وتفاعلها مع العملية التاريخية للحضارة الإنسانية هو قضية تعليمية بالدرجة الأولى، لينشأ أبناؤنا بين كنوز تراثنا ومع متغيرات العصر وكفاءاته من العلم والتكنولوجيا والثقافة، مفتحة كالجنان لهم أبوابها، لا ممنوعة ولا مقطوعة.. بقدر ما يعتبر التعليم هو الحياة الفعالة في تماسكها وتواصلها وصيرورتها.. وتلك أيضاً رؤية للمستقبل بدلالة التعليم.. ورؤية للتعليم بدلالة المستقبل.

أ ـ **أنماط جديدة للتعليم والتعلم**[٦٢]: إن أملنا في ذلك هو التربية عن طريق التعلم: فالتربية المنشودة في عصرنا لا تقبل الاقتصار على «التعلم الصياني» القائم على المحافظة على الموجود وعلى عدم تغييره، ولا تقبل النكوص عن التغير، كما لا تقبل هذا التعلم القائم على الحفظ والاستظهار وقتل المواهب، لنحل محله «**التعلم المجدد**» الذي يهدف إلى تربية النشء تربية استقلالية تحليلية ناقدة، حتى يتمكن من الوقوف أمام ما يمكن أن يقع من تيارات الغزو الثقافي والتلوث الفكري.

والتربية المنشودة في عصرنا لا تقبل «التعلم التلاؤمي» القائم على مجرد مجاراة التغير ومسايرته، لنحل محله «**التعلم التوقعي**» الذي يقوم على أساس توقع ما يمكن أن يحدث، وتحاشيه، أو مقاومته أو تغييره قبل أن يقع، حتى لا يقع الشخص فريسة لمفاجآت المستقبل، وحتى يكون قادراً على أن يسبق المواقف وهي متغيرة متجددة، ويستعد لها فلا يصدم فيها. فنحن نريد أن نستبعد التعلم عن طريق الصدمات، ونستبقي التعلم عن طريق التحكم في أحداث المستقبل.

والتربية المنشودة لا تقبل «التعلم التنافسي الانفرادي» لنحل محله «**التعلم التشاركي**» التعاوني التعاضدي، وهو تعلم العمل في فريق متنوع الأفراد لحل مشكلة تتحلل وتتفرع ثم تتجمع وهكذا.

وهي تربية لا تقبل الإسراف في التعليم أو «التعليم الزائد»، وإنما تشجع «**التعلم الذاتي**» القائم على المجهود الذاتي والسعي الذاتي، فنعلم النشء كيف يعلم نفسه ونعلمه كيف يشغل نفسه، ونعلمه كيف يكون ابتكارياً ابتداعياً منتجاً، يتصف بالينبوعية والاستقلالية والقدرة التحليلية النقدية، بحيث يختار لنفسه ويقرر لنفسه، فلا يكون فريسة لغيره.

وبهذه الأنماط الجديدة للتعليم والتعلم نريد أن نصل إلى أن الأفراد يتعلمون وإلى أن المجتمعات تتعلم، وإلى الحوار الذي يجب أن يكون بين تعلم الفرد وتعلم المجتمع مما يخلق فكرة «المجتمع المعلم المتعلم».

ب ـ **تعليم ذو معنى:** من الحاجات الإنسانية الأساسية الحاجة إلى «المعنى»، فالإنسان يسعى إلى أن يجد معنى فيما يهدف إليه، وفيما يفعله، بل يعيش من أجل «معنى» لحياته، لذا كان الإحساس بـ «اللا معنى» من المحددات الرئيسية للاغتراب.

وللتعليم دوره الحاسم في فعالية هذا الإحساس: فالتعليم ـ بأهدافه ومناهجه وطرائقه ـ ينبغي أن يكون غنياً بالمعنى بالنسبة للتلاميذ: فأهدافه متناغمة مع أهداف التلاميذ ومطامحهم، يشبع حاجاتهم إلى المعرفة وإلى الخبرة وإلى النمو، ويحقق ذواتهم. ويكون التعليم ذي معنى إذا كانت مصادره نابعة وظيفياً من البيئة العربية ومن التراث العربي ومن واقعنا وتوجهنا المستقبلي، وإذا كانت الأصالة في ثقافتنا في تفاعل خلاّق مع المعاصرة.

جـ ـ **استيعاب لا استظهار:** فسمة العصر هي إيغاله في دنيا العقل التي هي دنيا العلوم بأنواعها. وتمكين النشء من استيعاب العلم العصري وتقنياته يقوم على بناء العقلية العلمية في فهم الأشياء والظاهرات والعلاقات وتحليلها وتركيبها، والنظر إليها نظرة ناقدة، وتوظيف قوانين العلم ومبادئه في مجالات ومواقف جديدة، واستنباط قواعد وعلاقات جديدة.

وتمكين الناشئة من استيعاب العلم العصري يتطلب أساليب فعالة للتعلم ـ كالتعلم الاستكشافي والتعلم بحل المشكلات ـ تنمى في التلاميذ «البحث المنظم» و«التفكير الناقد» وعادات الاستقصاء، بقدر ما يشجعهم على تحديد المشكلات وتعيين المصادر المتاحة للحصول على المعلومات وتكوين الفروض والسعي إلى التحقق منها.

د ـ **تقنيات لا مقتنيات:** إن علم العصر هو علم متجسد في أجهزة نثرها الإنسان في كل مكان، لتكون وسائل وأدوات للعمل والإنتاج وللسيطرة على الطبيعة والإفادة بكل ما تذخر به من مصادر وثروات. وتكنولوجيا العصر بتنوعها قد اقتحمت مجالات عديدة، كمجالات العمل والإنتاج أو المؤسسات العلمية والتعليمية أو المنزل والمدارس والأندية الثقافية.. وكلها ينبغي أن تكون أدوات ووسائل تزيد من فعالية نشاطنا وعملنا، وتوفر الجهد لأنشطة وأعمال أرقى، فلا نلغي عقولنا إزاء قوتها، ولا تكون موجودات يعبدها الإنسان لسطوتها وسحرها.. تكنولوجيا العصر إذن هي وسائل لا غايات، هي تقنيات لا مقتنيات.

وإذا كان لنا أن نشجع ناشئتنا على اقتناء هذه التقنيات، فلا بد وأن يقوم ذلك على الفهم لما وراء هذه التقنيات من معرفة علمية متقدمة، ولما لها من استخدامات وظيفية، وكذلك لما لها من حدود، فلا يجعلها الإنسان تستبد به وتحوله إلى «إنسان آلي» يفقد معها إنسانيته،

وما ينطوي عليه ذلك من إحساس بالعجز والملل والفراغ وغير ذلك من أعراض الاغتراب.

هكذا يكون اقتناء الناشئة والشباب للتقنيات العصرية، وما أكثرها وتنوعها، من منظور وظيفي وعلى أساس من الفهم والوعي، لا على أساس من الانبهار أو التهافت، وليس لمجرد «الإمتاع والمؤانسة» إن صح هذا التعبير.

هـ ـ **وحدة العلم والعمل:** إن الناشئة، بجانب ما يتلقونه من معرفة وما يكتسبونه من مهارات إنما ينبغي أن يخبروها عملياً. ففي الممارسة العلمية للمعرفة تدعيم للخبرة ومراجعة لها، وتنظيم لأداءات المتعلم وتوجيهها نحو مهام وأنشطة هادفة، وفعالية لميكانزمات «التغذية الراجعة أو المرتدة». ففي تشغيل المعرفة عملياً نمو لقدرات المتعلم ونضج لشخصيته. والمعرفة التي قد تقدم للناشئة، وتكون بعيدة الصلة أو ضعيفة الصلة بالواقع العلمي والممارسة الفعلية فإنها تكون معرفة بغير معنى. ولنا أسوة فيما قاله لنا الفيلسوف العربي «أبو حامد الغزالي»، حيث نصحنا بأن نعمل بما نعلم لينكشف لنا مالا نعلم.

إثراء الوجود العربي بنظام قيمي(٦٣)

لقد انطوى العدوان العراقي على الكويت في بواعثه ودواعيه وممارساته على أزمة قيمية أخلاقية، تبرز معها الحاجة إلى حسن استثمار المعاني والمثل والقيم التي يزخر بها تراثنا العربي والإسلامي وتوظيفها في نظام أخلاقي لترشيد العلاقات البينشخصية وداخل المجتمعات وبين المجتمعات.

وفي هذا النظام تتسق القيم الأخلاقية ـ معرفة وفكراً، مشاعر ووجدانات، وأفعالاً وسلوكاً. وفي نسق هذا النظام لا بد من الحرص على التنمية القيمية للإنسان العربي وللمجتمعات العربية:

إرساءً لقيم الديمقراطية باعتبار الديمقراطية هي الضمان الوحيد والأكيد لاستقرار الأنظمة العربية ولصيرورتها في حركة دينماكية، مأمولة ومأمونة، نحو البناء وانتظام البناء واستمرارية نموه وتقدمه. والديمقراطية ليست مجرد فلسفة أو مبادىء، بل إنها بجانب ذلك توجه كلي للفرد وللجماعة.

- **فالديمقراطية حالة تهيؤ عقلي أو استعداد عقلي**، تتأتى بالتعلم والتدريب بدءاً من الأسرة كجماعة ديمقراطية وصولاً إلى المؤسسات الاجتماعية المختلفة في المجتمع كالمدرسة ومراكز العمل والإنتاج والمراكز الاجتماعية والثقافية وغيرها من الوكالات الاجتماعية.
- **والديمقراطية حالة من الوعي** بالحقوق والواجبات، وبالحرية والمسؤولية والالتزام؛ **كما أن الديمقراطية عملية من الوعي** لتشغيل واستثمار الفكر البناء الذي يفتح الباب للنقد لا

للنقض، وللديالوج لا للمونولوج وغير ذلك من عمليات التفكير المنتج والتفكير الإبداعي.

- **والديمقراطية أخلاق**، تأكيداً على أخلاقيات الديمقراطية حماية للنزعات والمقاصد من الانحراف عن معايير الديمقراطية، وموجهات للفكر والعمل صوب غايات البناء والتقدم.
- **والديمقراطية مناخ صحي**، نفسي اجتماعي، تسود فيه روح الـ «نحن»، والإحساس بالانتماء وبالتقدير، والوضوح في الأهداف والمعايير التي تعمل بها الجماعة، والمناقشة والحوار واعتبار الرأي الآخر كأسلوب للفهم والتفاهم، وتقدير الإنسان كقيمة عليا؛ ومن ثم فالديمقراطية هي المناخ المواتي لكل نمو ولكل إبداع للفرد والمجتمع.
- **والديمقراطية في كل ذلك هي أسلوب حياة** يعيشه الفرد والجماعة في الأسرة والمدرسة، والمؤسسات التعليمية والتثقيفية، وفي مؤسسات ومراكز العمل والإنتاج وفي التنظيمات المهنية والترويحية، وفي المؤسسات الحكومية والسياسية.

التنمية: إرادة الوجود العربي[٦٤]

إن التنمية هي الغاية الكبرى لتحقيق إرادة الوجود العربي ومعنى الوجود العربي.

والتنمية ابتداءاً هي تنمية للإنسان العربي، تنمية لكل الإنسان، وتنمية لكل إنسان:

فهي **تنمية لكل الإنسان** باعتباره وحدة كلية متكاملة غير مجتزأة ـ تنمية في كل جوانب بناء الإنسان جسمياً وعقلياً وعاطفياً وروحياً واجتماعياً، وفي حسن استثمار إمكانات وطاقات الإنسان العربي توافقاً مع متغيرات العصر وتفاعلاً مع متطلبات العصر وتحدياته وتمكناً من مهاراته وكفاءاته.

كما أنها **تنمية لكل إنسان**، أي في شمول التنمية لكل إنسان عربي داخل كل مجتمع عربي، سداً لمنابع التفاوت والتباين داخل المجتمع الواحد من حيث الفروق في المستويات الاجتماعية ـ الاقتصادية والثقافية، وبين المجتمعات العربية ـ بناءاً لنموذج مقتدر وفعال للشخصية العربية يحقق هويتها الحضارية.

وإن تنمية الإنسان العربي، باعتبارها لحمة التنمية وسداها للوجود العربي، لتتفاعل عملياتها مع عمليات تنمية المجتمعات العربية. وهنا لا بد وأن نضع في تقديرنا لعمليات تنمية المجتمعات العربية نموذج «المجتمع السليم» أو «المجتمع العاقل» أو «الصحة الاجتماعية» وغير ذلك من مفاهيم ونماذج تؤكد على مقومات «صحة المجتمع» وكفاءته.

وفي هذا النسق تنطلق التنمية بجناحيها: الأمن والاقتصاد.. إقراراً لمنظومة حضارية إنسانية «مفتوحة» للبناء وللتنمية.. وترشداً وإثراء بنسقها القيمي..

هنا ترتكز التنمية وبالضرورة إلى **منظومة أمنية عربية فعالة** كأساس لأي تفاهم وتعاون واستقرار داخل كل مجتمع عربي وبين كل المجتمعات العربية. وهي منظومة تتوجه إلى إشباع الحاجة إلى الأمن ـ كحاجة إنسانية أساسية ـ داخل الإنسان وبين الإنسان والإنسان، وداخل المجتمع وبين المجتمعات في وطننا العربي. وهي منظومة مقتدرة بالفعاليات الفنية والتقنية وبالتشارك والمسؤولية بين الدول العربية.. كما أنها منظومة ملتزمة وثابتة بالمبادىء والمواثيق العربية والعالمية.. وبهذا تعد التنمية الأمنية شرطاً وضماناً أكيدين للتنمية الاقتصادية.

وتستقر عملية التنمية وفقاً لمنظومة اقتصادية عربية ذات توجه بنائي / تنموي، يستثمر واقع الوطن العربي من حيث الوحدة والتنوع، لتكون منظومة قائمة على «الوحدة مع التنوع» ـ في المصادر والإمكانات البشرية والمادية والطبيعية والخِبْرية، كما تفيد وظيفياً من التغيرات والمتغيرات العالمية المعاصرة فيما يتعلق بتوجهات الوفاق والاتفاق بين عدد من الأنظمة السياسية والاقتصادية، واعتباراً لبعض النموذج الفعالة كالسوق الأوربية المشتركة.

وتتأكد التنمية الشاملة وتنشط فعالياتها بنظام قيمي يعمل كمبادىء وموجهات لطاقات الفرد والمجتمع نحو البناء والصيرورة في جوانب الحياة المختلفة للفرد وللجماعة.. وتلك هي **القيم التنموية** التي ينبغي العمل بها واستثمارها في كل نواحي بناء الإنسان والمجتمع في عالمنا العربي.

وتكون التنمية الحقة هكذا هي تنمية لكفاءات الإنسان العربي ولكفاءات المجتمع العربي تحقيقاً لوجود كريم ومقتدر، يتفاعل باقتدار مع متغيرات العصر وتحدياته، وفي حفاظ على هوية الذات الحضارية.

الهوامش والمراجع

(١) طلعت منصور: «التتارية الجديدة.. والعدوان على الذات العربية»، **سلسلة من الدراسات والتحليلات نشرت تباعا في جريدة الأنباء الكويتية** في الاعداد ٢٤، ٢٥، ٢٦ سبتمبر ١٩٩٠، ١٦، ١٧ ديسمبر ١٩٩٠، وفي مجلة الأهرام الاقتصادي في ٧ يناير ١٩٩١، وفي جريدة الأهرام المسائي في ٢٧ يناير ١٩٩١.

(٢) Caplan, G. Principles of **Preventive Psychiatry.** New York, Basic Books, 1964.

(٣) Sleikeu, K. A. **Crisis Intervention.** Boston: Allyn and Bacon, 1990, p. 15.

(٤) مجمع اللغة العربية: **المعجم الوسيط**، الطبعة الثالثة، القاهرة: ١٩٨٥.

(٥) يقدم «سلايكيي» هذه التعريفات في تناوله للمفاهيم والافتراضات الأساسية لنظرية الأزمات في الفصل الثاني من هذا المرجع (ص ١٤ ـ ٤١):

- Crisis Intervention, p. 15.

(٦) - Crisis Intervention, p. 15.

(٧) - Janosik, E. H., **Crisis Counseling:**
A Contemporary Approach. Monterey, California:
Wadsworth Health Sciences Division, 1984, p. 7.

(٨) - Crisis Counseling: Acontemporary Appraach, p. 8.

(٩) - Nowak, C. **Research in Life Events:**
Conceptual Considerations. Paper presented at the Thirth-first Annual Scientific Meeting of the Cerontological Society, Dallas, November, 1978.
Crisis Intervention, p. 16.

- Sugarman, S., & Masheter, C. Family Crisis Intervention Outcomes: Theory and Practice. **Emotional First Aid- A Journal of Crisis Intervention,** 1985, 2, 1, 19-24.

(١١) - Miller, K., & Iscoe, I. The Concept of Crisis: Current Status and Mental Health Implications. **Human Organization,** 1963, 22, 195-201.

(١٢) لقد **اهتمه** بعض الباحثين في تناولهم لنظريات الأزمات بعمليات تطور الأزمة وبتمييز هذه العملية التطورية في مراحل متتابعة، ومن هؤلاء الباحثين: **Principles of Preventive Psychiatry.**

- Fink, S. L., Beak, J., & Taddeo, K. Organizational Crisis and Change. **Journal of Applied Behavioral Science,** 1971, 7, 15-37.
- Baldwin, B.A. Crisis Intervention: An **Orverview** of theory and Practice. The Counseling Psychologist, 1979, 8, 43-52.

(١٣) يلقى نموذج هورويتز عن مراحل الأزمة قبولا عاما من معظم المنظرين والباحثين في سيكولوجية الأزمة وفي ادارة الأزمة، مع الاهتمام بزملات الأعراض المرتبطة بالضغوط النفسية وبالتدخلات العلاجية للصحة النفسية:

- Horowitz, M. J. Diagnosis and Treatment of Stress Response Syndromes: General Principles. In H. J. Parad. H.L.P. Resnik, L. G. Parad (Eds.), **Emergency and Disaster Management: A Mental Health Sourcebook,** Bowie, Md.: The Charles Press Publishers, 1976.
- Crisis Intervention, pp. 30-36.

(١٥) - Taplin, J.R. Crisis Theory: Critique and Reformulation. **Community Mental Health Journal,1971,** 13-23. يتبنى تابلين في عرضه وتحليله النقديين لنظرية الأزمة مدخلا معرفيا وحيث يقيم نوعا من المماثلة بين عمليات تشغيل المعلومات عند الانسان وبين تشغيلها في الحسابات الآلية.

(١٦) - Kobasa, S.C. Stressful life Events, Personality and Health: An Inquiry into Hardiness. **Journal of Personality and Social Psychology,** 1979, 37, 1-11.

(١٧) - Selye, H. **Stress in Health and Disease.** Boston: Boston: Butterworth, 1976.

(١٨) - Cohen, S. Aftereffects of Stress on Human Performance and Social Behavior: A Review of Research and Theory. **Psychological Bulletin,** 1980, 88, 82-108.

(١٩) - Pittner, M.S., & **Houston,** B.K. Response to Stress, Cognitive Coping Strategies, and the Type A Behavior pattern. Journal of Personality and social Psychology, 1980, 39, 147-157.

(٢٠) Mandler, G. **Mind and Body: Psychology of Emotion and Stress.** New York: W.W. Norton, 1984.

(٢١) - Mclean, A.A. Occupational Psychiatry. In H.I.Kaplan, A.M. Freedman and B.J. Sadock (Eds.), **Comprehensive Textbook of Psychiatry.** Baltimore: William & Wilkins, 1980, 2915-25.

(٢٢) يعد العالم الفسيولوجي الكندي هانز سيليي رائد البحث في الضغوط النفسية وفيما تتضمنه من عمليات وتفسيرات فسيولوجية ونفسية:

- Seyle, H. **The Stress of Life.** New York: McGraw-Hill, 1956.
- Stress in Health and Disease.

(٢٣) - Crisis Counseling: A Contemporary Approach, pp. 4-5.

(٢٤) التتارية الجديدة.. والعدوان على الذات العربية.

(٢٥) فيكتور فرانكل: **الانسان يبحث عن المعنى: العلاج بالمعنى**، ترجمة: طلعت منصور، الكويت: دار القلم، ١٩٨٢، ص ٢٥. يقدم فرانكل في هذا الكتاب، ومن وحي خبراته ومعاناته ابان الحرب العالمية الثانية وداخل معسكرات الاعتقال النازي، نظرية في سيكولوجيا الحروب والأزمات ومدرسة علمية في العلاج النفسي تعرف بمدرسة «العلاج بالمعنى» Logotherapy والتي تمثل ركنا أساسيا من أركان العلاج الوجودي والانساني، بل ومن أبرز معالم تطور العلاج النفسي المعاصر.

(٢٦) طلعت منصور: المعنى في الموقف المصري ـ العربي من أزمة الخليج، في **دروس وتساؤلات في مأساة العدوان العراقي على الكويت**، دراسات ومقالات للمؤلف، جمعها ونشرها في اصدار خاص المركز الاعلامي لسفارة دولة الكويت بالقاهرة: فبراير ١٩٩١، ص ٤٠ ـ ٤٣.

(٢٧) دروس وتساؤلات في مأساة العدوان العراقي على الكويت، ص ١٩.

(٢٨) دروس وتساؤلات في مأساة العدوان العراقي على الكويت، ص ١٧ ـ ١٨.

(٢٩) دروس وتساؤلات في مأساة العدوان العراقي على الكويت، ص ٤٣ ـ ٤٦.

(٣٠) دروس وتساؤلات في مأساة العدوان العراقي على الكويت، ص ٢٧ ـ ٢٩.

(٣١) دروس وتساؤلات في مأساة العدوان العراقي على الكويت، ص ٢١ ـ ٢٦.

(٣٢) التتارية الجديدة.. والعدوان على الذات العربية.

(٣٣) التتارية الجديدة.. والعدوان على الذات العربية.

(٣٤) دروس وتساؤلات في مأساة العدوان العراقي على الكويت، ص ٣٥ ـ ٣٦.

(٣٥) دروس وتساؤلات في مأساة العدوان العراقي على الكويت، ص ٣٣.

(٣٦) طلعت منصور: «العدوان على البيئة.. ونداء إلى الامم المتحدة: دروس جديدة للانسانية من مأساة العدوان العراقي على الكويت»، القاهرة: **مجلة الأهرام الاقتصادي**، ٢٥ فبراير ١٩٩١.

(٣٧) طلعت منصور: **المتلازمات النفسية لأزمة الخليج لدى الأطفال والمراهقين الكويتيين وتضميناتها الارشادية (دراسة تجريبية اكلينيكية)**، القاهرة: ديسمبر ١٩٩١.

(٣٨) - Arkoff, A.**Adjustment and Mental Health.** New York: McGraw-Hill, 1968, p.110.

(٣٩) - Thompson, C.L., & Rudoloph, L.B. **Counseling Children.** Monterey, California: Brooks/Cole Pub. Co., 1983, p. 162.

(٤٠) - May, R. The Meaning of **Nnxiety.** New York: Ronald Press, 1950.

(٤١) - Stern, P. J. The **Abnorman** Person and his World. Princeton: D. Van Nostrand Co., 1966, p.29.

(٤٢) - Perls, F. **Gestalt Therapy Verbatim.** Lafayette, California: Real People Press, 1969.

(٤٣) - Horney, K. The **Neurotic Personality of Our Time.** New York: Norton, 1937.

(٤٤) - Knopf, I.J. **Childhood Psychopathology: A Developmental Approach.** New Jersey: Prentice-Hall, Inc., 1984, pp. 334-335.

(٤٥) - **Crisis Counseling: A Contemporary Apporach,** p. 8.

(٤٦) طلعت منصور: سلسلة رسائل ارشادية للتحصين النفسي ابان الأزمة:

(أ) «الفجر المرتقب»، **جريدة الأنباء الكويتية**، ٢٧ يناير ١٩٩١.

(ب) «الوطن.. أولا وأخيرا»، **جريدة الأنباء الكويتية**، ٢٩ يناير ١٩٩١.

(جـ) «ارادة التحدي.. والنموذج الكويتي المشرف»، **جريدة الأنباء الكويتية**، ٣٠ يناير ١٩٩١.

(د) «المحن.. قوة للشعوب» **جريدة الأنباء الكويتية**، ٢ فبراير ١٩٩١.

(هـ) «رغم بشاعة الغزو»، جريدة الأنباء الكويتية، ٣ فبراير ١٩٩١.

(و) «صمود حتى النصر»، **جريدة الأنباء الكويتية**، ٤ فبراير ١٩٩١.

(٤٧) يؤكد اصحاب نظريات الأزمة على ان المواجهة الفعالة للأزمة تعني التوصل الى حلول للأزمة؛ وهنا تتضمن تلك المواجهة جانبين متكاملين: الجانب الأول وهو تغيير الموقف للمساعدة في حل المشكلة، أما الجانب الثاني فيتضمن التركيز على المكونات «الذاتية» للمشكلة وهي الجوانب الانفعالية ـ الدافعية لدى الاشخاص الذين خبروا الأزمة؛ ومن أصحاب هذه النظريات الأساسية كابلان ولازاروس:

- Principles of Preventive Psychiatry.
- Lazarus, R.S. The Stress and Coping Paradigm. In L.A. Bond and R.C. Rosen (Eds.), **Competence and Coping during Adulthood.** New Hampshire: University Press of New England, 1980.

(٤٨) الانسان يبحث عن المعنى: العلاج بالمعنى، ص ١٠٨.

(٤٩) دروس وتساؤلات في مأساة العدوان العراقي على الكويت، ص ٥١.

(٥٠) دروس وتساؤلات في مأساة العدوان العراقي على الكويت، ص ٤٧ ـ ٥٧.

(٥١) طلعت منصور وفيولا البلاوي: **اختبار التوجه الشخصي وقياس تحقيق الذات**، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٦.

(٥٢) الانسان يبحث عن المعنى: العلاج بالمعنى، ص ٩٤ ـ ٩٧.

(٥٣) **تقرير نادي روما الدولي**، صدر بالعربية للدكتور عبد العزيز القوصي بعنوان: «التعلم وتحديات المستقبل»، القاهرة: المكتب المصري الحديث، ١٩٨١، ص ٦٦ ـ ٧٢.

(٥٤) التعلم وتحديات المستقبل، ص ٦٧ ـ ٦٨.

(٥٥) التعلم وتحديات المستقبل، ص ٧١.

(٥٦) طلعت منصور: **دليل ارشادي للشباب الكويتي لمواجهة الأزمة وإعادة البناء**، اصدار خاص للمركز الاعلامي لسفارة دولة الكويت بالقاهرة: فبراير ١٩٩١. طلعت منصور، كافية رمضان، فيولا البلاوي: **استراتيجية بناء الانسان الكويتي**، اصدار خاص للمركز الاعلامي لسفارة دولة الكويت بالقاهرة، فبراير ١٩٩١.

(٥٧) طلعت منصور: نحو استراتيجية عربية لتجاوز أزمة الخليج، **ندوة أزمة الخليج.. الحاضر والمستقبل**، نظمها المجلس الشعبي المحلي، القاهرة: مصر الجديدة، مارس ١٩٩١.

(٥٨) الانسان يبحث عن المعنى: العلاج بالمعنى، ص ١٦.

(٥٩) الانسان يبحث عن المعنى: العلاج بالمعنى، ص ١٠٩.

(٦٠) الانسان يبحث عن المعنى: العلاج بالمعنى، ص ١١٤ ـ ١١٥.

(٦١) يعني مفهوم «تجاوز المتناقضات» (Synergy) المقدرة على رؤية أضداد الحياة ومتقابلاتها، وعلى تحمل الغموض في هذا التناقض، ومن ثم المقدرة على عزل المتغيرات وفض الاشتباك بينها. وتعد المقدرة على «تجاوز المتناقضات» من الخصائص الأساسية للشخصية المحققة لذاتها، ولذا كان تجاوز المتناقضات من الأبعاد الأساسية في قياس تحقيق الذات في «**اختبار التوجه الشخصي**» لشوستروم.

(٦٢) التعلم وتحديات المستقبل، ص ١٤ ـ ١٩.

(٦٣) دروس وتساؤلات في مأساة العدوان العراقي على الكويت، ص ١٠٧ ـ ١٠٨.

(٦٤) دروس وتساؤلات في مأساة العدوان العراقي على الكويت، ص ١٠٩ ـ ١١٠.

* * *